«وإنما المرء حديث بعده»

أحاديث عن مي

---

١ — حضرة صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا

٢ — حضرة صاحبة العصمة هدى هانم شعراوي

٣ — حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

٤ — حضرة النائب المحترم الأستاذ عباس محمود العقاد

٥ — حضرة الفاضلة السيدة بيجي خير

٦ — حضرة صاحب العزة الأستاذ أنطون الجميل بك

٧ — حضرة صاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك

٨ — حضرة الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

٩ — حضرة الأستاذ خليل مطران بك

— حديث مي : للأستاذ محمد عبد الغني حسن

[رحّب هؤلاء الأعلام الأجلاء بدعوة المقتطف، وتكرموا بإجابتها بحديث عن (ميّ) [illegible] للأستاذ محمد عبد الغني حسن الذي تفضل فناب عنه في جمع هذه الأحاديث وإعدادها للنشر. ولقد كان وفاؤهم (لميّ) جميلاً وتقديرهم لها كريماً نبيلاً. فلعلّ شكرنا يفي ببعض ما وجب من حقهم، ويجزيهم بعض الجزاء عن حسن صنيعهم، وجميل فضلهم — المقتطف]

حضرة صاحب المعالي الشيخ

مصطفى عبد الرازق باشا

وزير الاوقاف

لم أتكلف في الوصول الى معالي مصطفى باشا عبد الرازق مشقة او عنتاً . ولم أصادف في الاتصال به جهداً ولا نصباً . فهو وزير من طراز الصدر الاول من بني العباس في سماحة الخلق ، وبشاشة الوجه ، وسماحة النفس ، ورحابة الصدر . لا تفارق الابتسامة اللطيفة ثغره ولا يزايل التهلل والاشراق جبينه ، فهو كما قال عبيد الله بن قيس الرقيات في مصعب

شهابٌ من الله تجلَّت عن وجهه الظلماء

ولقد شرفني (المقتطف) بأن آخذ منهُ الحديث عن (ميّ) فشرفني معاليه باستجابة الدعوة وتحديد الموعد . وكان كريماً في تفضله ، وفيماً في تنازله ، دانياً في تواضعه ، عالياً في مجده ، فذكرني شأنه من الدنوّ والسموّ بقول الشاعر :

كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وشرفني معاليه — للمرة الثانية — بلقاء وشيك ، واستقبال سريع فما جرى على غير سجيته ومأنوس بشره ومألوف بره ، وكان في يومه خيراً من أمسه . وفي الغد تكررت في الحضور حتى يكون حظي من اللقاء اعظم ومداي من الحديث أفسح . وهنا طال المجلس ، وامتدَّ الحديث ، وأنا كثير الطمع في رحابة صدره ، وتفتح آفاق حلمه ، ومعاليه يستمع الى أسئلتي عن (مي) فيجيب عنها في هدوء الفيلسوف ، وأناة الاديب ، وتعمّق العالم

فما ضاق معاليه بسؤالي ، ولا تعرَّض لبعض الجرأة [illegible] ولكنه كان يتوفى الاجابة في دقة ورفق وأناة ، وفي بصر بعواقب الكلام ومرامي الحديث ، وفي أناقة في اللفظ وسلامة في التعبير وسمو في التفكير

والأدب والعلم في بيت عبد الرازق ميراث الاجداد الى الأبناء ، واليهم انتهى القضاء الشرعي في البهنسا بمديرية المنيا ومن هنا تدرك السر في احتفائهم بمن يمت الى الادب بنسب أو يتصل منهُ بسبب ، وان كان شرهم وايناسهم قد عم كل طبقة وامتد الى كل طائفة

رأيت في زيارتي الثالثة لمعاليه شيخاً في مكتبه ، وقد أدناه الوزير منه وقربه اليه ، والشيخ يميل على جوانبه كأنه يميل على أبيه ... فعرفت كيف استطاع مصطفى باشا أن يجتذب القلوب ، ويأسر النفوس ، ويجعل الناس مجتمعة على محبته

ومعالي مصطفى باشا عبد الرازق أديب قبل أن يكون فيلسوفاً وشاعر قبل ان يكون كاتباً ، ولقد مدح معاليه وهو فتى ناشيء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على احد مرافقه بقصيدة

وتظهر شاعريته في رقة حاشيته ، ولطف جانبه ، وسلامة ذوقه في قيامه وقعوده وتسليمه ووداعه ، واستواء هيئته ، وحسن بزته ، وفي حلاوة حديثه وعذوبة صمته ...

ولعل معاليه ترك قرض الشعر من زمن بعيد وعمد الى النثر ، أو لعله يضن بشعره ان ينشر ، ولكن الذي لا شك فيه ان في معاليه من الشاعر السامي ، الرقة والاحساس والشعور وفي وجهه شاهد من الخبر ....

ومعاليه كاتب من طراز رفيع ، وله في كتابته ميزتان احداهما دقته التي كانت نتيجة اشتغاله بتدريس المنطق والفلسفة الاسلامية في الجامعة المصرية ، والاخرى هذه الاناقة في التعبير ، وذلك الاحتفال بالاسلوب دون قصد الى تعمد أو تكلف . فالاناقة طبعه ، والرقة صحيته في شأنه كله

***

ولقد وقف معاليه في حفل تأبين (مي) يلقي كلمته ، ويستعيد (من ذكرياته) في صوت خاشع رزين ، وفي جو تجلله المهابة والوقار . ولقد اجتمع في اثناء كلمته وقار ذكرى مي بوقار معاليه ، والتقى جلال الموقف مع جلال الوزير ، فاذا الجمع ساكت ، واذا الأبصار خاشعة ، واذا كلمته في القائها المتزن ، ووزنها المعتدل ، وصدقها واخلاصها تثير في السامعين مكامن الشجن ، ولواعج الحزن

ولقد تخير معاليه لكلمته في الحفل استهلالاً بارعاً ، كما يتخير الشاعر في قصيدته روائع المطالع ، من أجمل وأروع ذلك المطلع من كلمته حيث يقول (شهدنا مشرق مي وشهدنا مغيبها ، ولم يكن طويلاً عهد مي ، على ان مجدها الادبي كان طويلاً في الحياة عريضاً)

وذكرني ترديد معاليه لتلك الشمس المشرقة الغاربة على قصر عهدها وصغر عمرها بالكلمة المشهورة للدكتور هرجو (أيتها الشمس المختفية وراء الأفق ! ان أشعتك باقية الانوار)

وهي الكلمة التي ودعت بها (ميّ) المرحوم الدكتور يعقوب صروف في حفل تأبينه بدار الأوبرا الملكية

ومصطفى باشا عبد الرازق بتأبينه (ميّا) في حفلها، وبتكرمه بالحديث عنها الى المقتطف يضرب أحسن الأمثلة في الوفاء ورعاية حقوق الصداقة وواجبات المودة. ومعاليه يعرف كيف يتخير الاصدقاء حتى من تلاميذه، ويقول في مقدمة كتاب معروف ترجمة واحد منهم (اذا لم يكن لنا من تلاميذنا أصدقاء، فليس لنا في الناس من صديق)

وسيرة مصطفى باشا عبد الرازق تتعطر بها المجالس وهي تمتاز الى الجانب الخلقي الرفيع منها بجانب الدأب والتحصيل والاطلاع الدائم المتصل، وقد اشار الى مكان معاليه في النهضة التجديدية الحديثة الدكتور تشارلز آدمز مؤلف كتاب (الاسلام والتجديد في مصر) وذكر طرفاً من ترجمته وآثاره

بدأ حياته نابهاً ألمعيّاً، وبلغ اليوم ما نرجو له مزيد للخير فيه، فلقد بلغ السماء مجده وجدوده، وإنا لنرجو له فوق ذلك مظهراً

***

١ — سألت معاليه: (كيف نشأت الصلة بين معاليكم وبين «مي»، وما رأيكم في ناديها الادبي وإدارتها الحديث فيه؟)

فأجاب معاليه: رأيتها أول مرة في حفلة «بالكونتننتال» للاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاماً على انشاء مطبعة المعارف. والواقع ان الزمن أنساني كيف نشأت الصلة. ولكن الذي لا يُنسى أني بعد هذا كنت من المترددين على ناديها الادبي. والحق ان «ميّا» لم تكن تغشى الحفلات الاجتماعية والأندية كثيراً، فكان الاجتماع للمتصلين بها في ناديها الخاص الذي جعلته في بيتها، وكان المجتمعون يستطيعون ان يقدروا جميع مواهبها الادبية والخلقية. أما من الناحية الادبية الفنية فلأنها كانت هي التي تتولى ادارة الحديث في المجمع وكان تنوّع الاحاديث وسموها وسلامتها من كل ما لا تخلص منه عادةً المجامع يدل على مقدار كفايتها الادبية، وقيمتها الاخلاقية

وكانت «ميّ» تدير الحديث ولكن من غير ان تظهر بمظهر المتزعمة في النادي، او المتصدرة في المحفل مما يدل على ناحية من نواحيها الخلقية الجميلة

٢ — فسألت معاليه : (ما رأي معاليكم في تحصيل مي للعلوم ، وإكبابها على الدرس وغرامها بالمطالعة ؟)

فأجاب معاليه : أظن ان أحداً ممن عرف الآنسة « ميّ » لايشك في أنها كانت متنوعة الثقافة ، وأنها كانت مشغوفة بالتحصيل والاستفادة والمطالعة وكانت دراستها — فيما أعتقد — دراسات أدبية . أعني أنها تذهب الى ناحية التفكير الأدبي او الاجتماعي او الاخلاقي من غير ان تنزع الى نزعة التخصص التي تدعو الى الدخول في معضلات المسائل العالية أو في استعمال الأساليب الفنية في التعبير . وليس هذا الذي ذكرت غضاً من قيمة «ميّ» العلمية، لانه اذا كان أثر العلماء المتخصصين أثراً كبيراً في ترقية الفكر الانساني ، وترقية الحضارة الانسانية،فان أثر العلماء المتأدبين في ترقية الفكر الانساني وفي ترقية الحضارة ليس أقل شأناً

ولعلّ الأفكار والأبحاث العلمية التي لها صبغتها الفنية لا تصل الى دور العمل ودور النفوذ الى عقول الشعوب وقلوبها الاّ بوساطة الادب

٣ — فسألت معاليه : (ماذا كانت لغة الحديث عند (مي) في ندبها وفي خلال مناقشاتها ؟)

فأجاب معاليه : أما حديث «ميّ» الغالب فكان باللغة العربية ، وكان بالعربية الفصحى ومع تأنق (ميّ) في شأنها كله ، وفي حديثها على الخصوص، فانها كانت تصل الى جعل اللغة العربية الفصحى لغة حديث في مجمع راقٍ ليس كل شاهديه من أنصار العربية الفصحى ، من غير ان يشعر أحد من سامعيها بأن حديثها أقل سلاسة او أظهر تكلفاً من حديث المتكلمين باللغة العربية العادية او المتكلمين بأي لغة من اللغات الحية الراقية

وأظن ان ميًّا خدمت بهذه الناحية من نواحيها اللغة العربية خدمة كبيرة ، لانه اذا كانت للجرائد والمجلات أعانت على التوفيق بين منازع الراغبين في استعمال اللغة العربية بأساليبها الموروثة وبين منازع الراغبين في استعمال اللغة العامية ، او ما يشبه اللغة العامية ، فان ميًّا أسدت هذه الخدمة نفسها الى اللغة العربية في ناحية لا تصل اليها الجرائد ، وهي ناحية التخاطب والتحاور . فكما أسدت الصحف والمجلات خدمة التوفيق بين هذه المنازع عن طريق الكتابة ، فان (ميًّا) أدتها عن طريق الحديث والمخاطبة

٤ — فسألت معاليه : (ما رأيكم في الكآبة التي استولت حيناً على مي ؟ هل

كانت أصلاً فيها أم طارئة عليها ؟ وهل ساعد تفكيرها العميق على إسعافها في أحزانها وإسعادها ؟)

فأجاب معاليه في إيجاز : لا أعتقد ان ميًّا كانت بأصل فطرتها كئيبة ، وقد يكون مجهودها العقلي أعان الظروف السيئة التي صادفتها في سنيها الأخيرة على ما جدَّ لها من كآبة وحزن

٥ — فسألت معاليه (ما احب كتب « مي » او آثارها القلمية الى معاليكم ولماذا ؟)

فأجاب معاليه : لعلي لم أسأل مثل هذا السؤال قبل اليوم ! ولكن في حفل تأبينها سمعنا قطعة من قطع (ميّ) الادبية ألقتها فتاة لها صوت « مي » فخيل اليَّ ساعتئذ ان هذه القطعة هي أحب ما كتبت « مي » الى نفسي

٦ — فسألت معاليه : (هل كانت « مي » من المحافظات على التقاليد ، المتمسكات بموروث العادات ؟ وما سر ذلك الحفاظ منها على الرغم من تشبعها بالثقافة الغربية ؟)

فأجاب معاليه : اذا كانت المحافظة على التقاليد درجات ، فان « ميًّا » لم تكن في طرفيها ، وأعني أنها لم تكن في أول حدود المحافظة ولا في نهاية حدودها . ولعلنا — في جيلنا — لم نكن نرى « ميًّا » من المحافظات ، ولكن معاني المحافظة والتجديد تتغير وتتغير بسرعة ، ولعل ما كان معتبراً من التجديد في اوائل هذا القرن أصبح في أيامنا هذه يعتبر محافظة . وقد أصبحت خطوات الزمن أسرع من خطوات المفكرين الذين يطلبون التجديد عن روية وأناة « فمي » كانت مجددة في حكم الرأي العام لاول عهدها ، ثم تطورت الظروف بأسرع مما تطورت ميّ ، لأن « ميًّا » كانت مفكرة ، وما أظن الظروف تراعي في تطوراتها تفكيراً

٧ — فسألت معاليه : (لقد دافعت مي عن الاسلام وديمقراطيته في كتابها (المساواة) . فهل درست مي شيئاً عن روح الاسلام وحقيقته وفلسفته ؟ واذا كان ذلك فمن كان معلمها ؟)

فأجاب معاليه : ما اظن ان ميًّا كانت تجهل من الاسلام ما يجب على أديب مثقف أن يعرفهُ من شئون دين له في تاريخ الفكر البشري ، والحياة الادبية في البشر ما للإسلام

ولم تكن (مي) متعصبة لدين ، ولكنها كانت متدينة ، ولم تمس نزعات الفكر الحر المسرفة أحياناً — التي كانت تحيط بها — صميم إيمانها

٨ — فسألت معاليه : (الاجمال بالطبع للمفاضلة بين عائشة التيمورية وباحثة البادية والآنسة ميّ ولكني أسأل معاليكم عن رأيكم اجمالاً في اثر هؤلاء الكواتب والشواعر في الأدب العربي)

فأجاب معاليه : الواقع ان اعتبار ظروف الزمن والأحوال الاجتماعية المحيطة بالاشخاص له أثر كبير في تقدير قيمتهم ووزن أثرهم في الجماعة أو في الادب

فالزمن الذي نشأت فيه عائشة التيمورية [illegible] العلمي والادبي [illegible] لان ينشىء أديبة كميّ ، ولم يكن مستعداً لأن يحتمل نزعة من نزعات النهوض النسائي كالنزعة التي أوجدتها باحثة البادية ، او النزعة التي أوجدتها «ميّ»

فاذا كانت «ميّ» أوسع ثقافةً او أكبر مظهراً في الحياة الادبية من سابقتيها فينبغي ألا ينسى عند الحكم في ذلك انه يرجع الى اختلاف التطورات واختلاف البيئات ، بل اختلاف الحياة كلها في هذه الأجيال الثلاثة التي تمثلها الاديبات الثلاث

٩ — فسألت معاليه : (ما أثر الآداب الافرنجية في الآنسة مي وفي طريقة كتابتها ؟)

فأجاب معاليه : للآداب الافرنجية من غير شك أثر ظاهر في اسلوب ميّ وفي طريقة معالجتها للموضوعات التي عالجتها . ولعل أثر الآداب الاوربية الذي وصل الى ميّ من طريق الكتّاب السوريين في أميركا — كتاب المهجر — لا يقل عن أثر مطالعتها للآداب الاوروبية ذاتها . ولميّ ومن يحذو حذوها من الأديبات والأدباء مذهب في الكتابة العربية لايزال حيًّا يزاحم في ميدان التنافس بين الاساليب الجديدة التي يلتمس كل واحد منها النصر في سبيل التغالب . والله أعلم لأيها يكون النصر

ومن يدري ؟ فقد يكون للحرب القائمة ونتيجتها أثر حتى في أساليب التفاهم بين الناس

حضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة

هدى هانم شعراوي

رئيسة الاتحاد النسائي

السيدة هدى هانم شعراوي هي زعيمة « الاتحاد النسائي » ، ومثالٌ راقٍ للمرأة المصرية المثقفة ، أتوزع قلبها بين يدٍ تسديها او صنيعة تقدمها أو بِرٍ تدخره عند الله

سمعتها تفتتح حفل تأبين « ميّ » وعليها هالة من وقار ، وسمات من كرامة محتد وعراقة أصل ، وفيها ثقة واعتداد ، واطمئنان واعتزاز . وكان الحزن يبدو في نبرات صوتها وقسمات وجهها ، ومن خلال سطور كلمتها . وكانت تروح على مسرح الحفل وتغدو ، وتقوم وتقعد ، لأن نظام الاجتماع كان موكولاً اليها ، ونجاح الحفل كان مردُّه الى فضل نشاطها وحسن تنظيمها

وبلغ تأبين ميّ في دار « الاتحاد النسائي » غاية النجاح ، وانتهى الحفل ، وطوي البساط وانفضّ الجمع الحاشد الذي وفد ليسمع الانسانية تؤبن « ميّا » الانسانة ، وليرى رياض الأدب تبكي على « ميّ » الزهرة ، وليشترك في الوفاء لفتاة كان من طبيعتها الوفاء لشرقيتها وجنسها ووطنها . وجميل من هدى شعراوي ان تخص « ميّا » بتكريمها بعد موتها كما كرَّمتها في حياتها . فإن عصمتها أولى الناس بتقدير العاملات وتكريم النابهات

ولقد سمعتها بعد الحفل تتحدث الى الدكتور طه حسين بك في شأن فتاة تساعدها عصمتها على اتمام تعليمها ، وتعينها على تحقيق آمالها . ويظهر ان هذه الفتاة واسعة الآمال عريضة الأماني . وكنت أستشف من كلام عصمتها الى « مراقب الثقافة بوزارة المعارف » معاني الرحمة التي طبعت عليها ، وألمس في كلماتها الرحيمة القوية ، عطف المرأة في حنانها ووجدانها ، وقوة المرأة في اعتقادها وإيمانها . . ومن عجب ان السيدة « هدى » التي تميز المثقفات على التعليم ، وتعدهن بأسباب دخول المدارس والانتظام في المعاهد — لم تدخل مدرسة في حياتها ، ولم تتعلم في معهد . . بل انتقلت المدارس اليها في قصر أبيها ، وجاءها المدرسون والمدرسات في معاهد طفولتها ومراتع صباها . . .

ومن أول أعمال هدى في سبيل البرّ اشتراكها في مبرة محمد علي التي دعت اليها الأميرة عين الحياة زوجة الأمير حسين كامل ، تلك المبرة التي نجحت وما زالت ناجحة الى يومنا هذا

وهي أول مصرية نادت بالسفور عمليًا ، وتركت المحاجّين يتناظرون ، والمجادلين يتناقشون ، ونزعت البرقع في صيف سنة ١٩٢٠ بعد أن عادت من تمثيل مصر في مؤتمر الاتحاد النسائي بروما ، وكان ذلك آخر عهدها بالحجاب

ونشاط صاحبة العصمة في سبيل المرأة المصرية ، وفي سبيل البر والاحسان ، لا يقف عند غاية ، ولا ينتهي عند أمد . فرأست « جمعية المرأة الجديدة » التي أسستها بعض المعلمات سنة ١٩٢٠ . وأسست في سنة ١٩٢٤ « الاتحاد النسائي » وهو نادٍ ومدرسة ومشغل . وتقيم من حين الى حين سوقاً خيرية لمشغل الاتحاد ، وهي سوق ناجحة رابحة

والسيدة « هدى » تُعطي ولا تتحدث ، وتحسن ولا تتكلم ، وتتصدق ولا تمنّ ، لأن الاحسان فيها لله لا لغرض ، والمعروف فيها للمعروف لا لوجه آخر ... تبرعت مرة بمبلغ الف جنيه « للمرأة الجديدة » ولم تذكر منه شيئاً ، وتتبرع غير ذلك بالمئات وعشراتها ، فلا تتحدث عن شيء منها ولكنها لا تستطيع ان تجعل الناس لا يتحدثون عنها ... فلا قيمة عندها للمال ، ولكنه العمل الصالح يربي على الاعمال ، ويزيد على كل مال

بعد انتهاء حفل ميّ بأيام ، كنت عند صديقي وأستاذي أنطون بك الجميّل في مساء عاصف فيه من الحرب أنباء وأخبار . . . واذا به يريني رسالة من هدى هانم شعراوي تشكر له اشتراكه بجهده ووقته في حفل تأبين ميّ . واذا به يقول : — لست أدري يا أخي أينا أحق بالشكر وأجدر بالثناء ؟

فهدى شعراوي لم تر فيما صنعته هي ما يستحق شكراً او يستوجب ثناء ، وهذا مثل منها في الانكار والايثار . ولكن عصمتها نسيت أنها خلعت من جلال شخصيتها ، ومعروف مكانتها على حفل « ميّ » ، ما أفاض عليه الجلال والوقار

فبدت « ميّ » في هذا الاحتفال في جلال الموت ، وخشوع الذكرى ، وسواد الاطار ، كما كانت تبدو في أدبها وكتبها وندوتها فرحة القلوب وبهجة الانظار

***

١ — سألتها : (كيف عرفت ميًّا . وما أولى ذكرياتك عن مقابلتك الاولى لها ، وما الاثر الذي تركته في نفس عصمتك ؟)

فأجابت : ترجع معرفتي بمي الى ما يزيد على خمس وعشرين سنة ، وهي حقبة طويلة من العمر وقطعة مديدة من الزمن كما ترى ، الا أنها قصيرة بالقياس الى ميّ ، والورود دائماً قصيرة

الأعمار ، قليلة الآجال ، وهل كانت مي إلاَّ وردة ناضرة مملوءة بكل معاني الحياة والقوة . وهل كانت ميّ الاَّ زهرة من تلك الازهار الجميلة التي تتفتح ساعات أو أياماً في روض الحياة ثم لا تلبث أن يعاجلها الذبول ، أو كوكباً متألقاً في سماء الدنيا ساعة ثم يدركهُ الأفول ؟

***

ترجع معرفتي بمي — بالضبط — الى شهر ابريل من سنة ١٩١٤ ، فقد كنا في ذلك الحين ننظم سلسلة من المحاضرات للسيدات في الجامعة المصرية القديمة

وكان يختلف الى هذه المحاضرات عدد مختلف من كرائم الاوانس وفضليات السيدات ، دفعهنَّ الشوق الى العلم ، ورمى بهنَّ الينا التوق الى المعرفة والثقافة . وقادهنَّ مصباح من الأمل ... ذلك الأمل الذي كان يختلج في صدر المرأة المصرية في إبان حركتها وفي مقتبل نهضتها

وبينما أنا في سبيلي الى مغادرة هذه المحاضرات بعد القاء المحاضرة اذا بعيني تقع على فتاة تميزها من بين ذلك الجمع النسوي حركات رشيقة ، وروح لطيفة خفيفة ، وينبعث من عينيها السوداوين أشعة قوية من ذكاء خارق ، وألمعية حادة ، وفطنة نادرة

وتجمع هذه المخايل كلها في وجه جمَّلهُ الله بصباحة خاصة ، وسمة متميزة ، وميزهُ بأسارير مشرقة عن ابتسامات عذابٍ ، كابتسامة الزهرة للشمس والماء والهواء في فصل الربيع . . .

رأيت هذه الفتاة تقترب مني قليلاً ، وتقصد صوبي وتستوقفني قائلةً (سيدي عندي : أنا معجبة بمشروعك مقدرة لما تبذلهُ من جهد . لذلك أضع نفسي تحت تصرفك . ولا تظنني يا سيدي أني صغيرة لا استطيع المعاونة او لا اقدر على المساعدة . . . أنا كاتبة وشاعرة . أنا أكتب في الصحف وأنشر في المجلات . أنا « مي » ولا أظنك ياسيدي إلاَّ قرأت شيئاً مما كتبتهُ . ألا تعرفيني ؟؟)

وكانت هذه الكلمات الصريحة المملوءة بالشجاعة الأدبية والاعتداد بالنفس والثقة بالشخصية ، والتي تنم في الوقت نفسه على روح مفعمة بالنية الخالصة والقصد الحسن — كانت باعثتي على ان اضم تلك الفتاة الى صدري ، وان أقبلها قبلة الاعجاب بها والرضى عن نبل مقصدها وشرف غايتها

وأبديت لتلك الفتاة التي عرضت نفسها لخدمة غرضنا النبيل إعجابي بمعرفتها وسروري

برؤيتها واغتباطي بانضمامها الى صفوف حركتنا كاتبة بقلمها ، وموحية بتفكيرها ، وملهمة بشاعريتها . . .

ولم يمنعني صغر سنها وحداثة عهدها من أن أرحب بانضمامها الينا ، ومن أن أتوقع منها الجهد الكبير والعمل العظيم . وهل يمنع السن الصغير فضلاً ، أو تحجب الحداثة حلماً ونبلاً ؟ ألم يقل المتنبي الشاعر

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

ثم ألم يقل الشاعر الآخر

ورب صغير لاحظته عناية من الله فاحتاجت اليه الأكابر

٢ — فسألت عصمتها : (ما النواحي الجميلة التي كانت تعجبك من الفتاة مي والمميزات في الخلق وفي الخلق التي امتازت بها ؟)

فكان الجواب : لقد رأيت في ميّ انساناً غير عادي ، لقد حباها الله — وهو واسع الفضل — بعقل كبير ، ولكن قلبها كان أكبر من عقلها . لقد كان ذلك القلب ينبض بمعاني شتى من الرحمة والعطف والحنان . وكانت مي عالية النفس، فما عرفتها تدنت الى دنية او تنزلت الى مسفل . وكانت واسعة آفاق التفكير فما عرفتها وقفت عند حد محدود . وكانت بعيدة الادراك فما رأيت منه قصوراً فيه . ومع تلك الصفات المحبوبة ، والمزايا الموهوبة كانت بعيدة عن الغرور ، منزهة عن الانخداع ، فما عرفتها زهيت بعلم او تاهت بذكاء او دلت بتفكير . ولكنها كانت تعرف قدر نفسها في تواضع جميل ، وبساطة محبوبة . ولم تكن مي على وسامتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال ، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها ، وروحها أجمل من صورتها . فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ولا أضأل نصيباً من الجاذبية . لقد كان يجعل ميًّا بين الجميلات ، ويزينها بينهن شيء خفي وسر مستبهم لعله هو الذي حير الشاعر فقال :—

شيء به فتن الورى غير الذي يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وليس في الأمر عندي سرّ مستغلق ولا خفي مبهم ، فسر جمال مي كان في روحها ، والجمال المعنوي الروحي هو ضرب من الجمال يسمو على كل جمال

٣ — فسألتها : هل عرفت الثقافة الاوربية والحضارة الغربية ميًّا عن الامتلة

الشرقية العالية ، وهل انغمست مي في تيار المحدثين تذهب مذاهبهم في التمسك بكل ما هو غربي ، والتنصل مما هو شرقي ؟)

فكان جواب عصمتها : لقد وجدت في مي من الاعتصام بالشرق والحفاظ على الشرقية ما يجعلني أذكر مع الفخر أنها كانت المثل الأعلى للفتاة الشرقية الراقية المثقفة . لقد نهلت مي حقاً من موارد الغرب ووردت حياضه وأخذت كثيراً من طرائقه واتجاهاته ، ولكن ذلك كله لم يُنسها حق أهلها وفرض وطنها — وقد كان الشرق كله لها وطناً — فما أضاعت عادات أهلها ، ولا احتقرت تقاليد قومها ، ولا فنيت في الغرب كما يفنى فيه المستضعفون

لقد كانت مي معتزة بقوميتها ، مفتخرة بنسبتها ، متمكنة من لغتها العربية ذاخرة بالكثير من دقائقها وأسرار جمالها وكانت محافظة كل المحافظة على شخصيتها الشرقية فما ضيعتها او تركت عنها او لبست ثياباً غيرها لا تواتمها . وكانت عقائد قومها محل احترامها وموضع إكرامها ، فما غمزت او لمزت على نحو ما يفعل الغامزون اللامزون . ولكنها كانت تتألم لعيوب الشرق ، وتبكي على ضعفه المادي وتتمنى أن يتاح له من القوة المادية ما يكمل به سمو روحانيته

٤ — فسألتها : (ما رأي عصمتك في طريقة مي في كتابتها وتفكيرها)

فأجابت : كانت في مي دقة امتازت بها كتابتها ، واختص بها أسلوبها . ولم تكن ابحاثها مبتسرة ، ولا موضوعاتها مرتجلة ، ولكنها كانت وليدة البحث ، ونتيجة التمحيص . تكتب مي فترى الدقة في كتابتها والضبط في تعبيرها ، وتحاضر مي فلا تراها مسرفة في التعبير او مبذرة في الالفاظ . ولعل دراستها للغات الاجنبية قد مكنت لها من اسباب التدقيق والتمحيص

وكانت هذه العصمة من الدقة لا تفارق مياً في أي موضوع طرقته او بحث عالجته ، حتى في كتاباتها العاطفية الخيالية ، فلم يكن خيالها شارداً تائهاً ، ولم تكن أحلامها في سبيل الشرق وعلومه التي كانت تلبي ... مي أفكاراً دقيقة وآراء محكمة

٥ — فسألت عصمتها : (ما الآثار التي تركتها مي في الحركة النسائية في مصر)

فتفضلت بالجواب قائلة : لما عرضت مي عليّ خدمتها لحركتنا سنة ١٩١٤ رحبت بها لما

لمحه فيها من الصدق ، وتبينتهُ في كلامها من الاخلاص . وقد طابق فعلها — يومئذٍ — قولها ، وصدق عملها حديثها . فلقد انضمت الى صفوفنا متواضعة الأخلاق ، قوية الروح عميقة التفكير ، وكانت تدهشنا جميعاً بالذكاء الحاد المتفجر من كل اشارة من اشاراتها ، او خلجة من خلجاتها ، او نبرة من نبراتها . وكان أكثر ما يدهشنا منها سمو روحها ودقة احساسها . فلقد كانت مي تتأثر لكل شيء ، وتحس بكل شيء . وكنت أخشى على المسكينة من اجتماع هذه المميزات فيها . نعم كنت أخشى ان يجني عليها ذكاؤها ، او يقتلها نبوغها ألم يقل الشاعر « ذكاء المرء محسوب عليه » .

نعم كنت أفزع من ان تصطلح عليها هذي القوى الجبارة العنيفة التي كان قلبها وروحها وجسمها موزعة بينها ، وأخشى ان تهدها تلك القوى هداً ، وتدكها دكاً ، وتحطمها تحطيماً

لقد انضمت ميّ الينا عاملة مجاهدة ، تسبق الصفوف وفي يدها قلمها ، وبين حناياها قلبها وفي القمة منها رأسها وتفكيرها ، ولكن أفقنا المحدود في الجهاد ضاق أمام عينيها البعيدتين في مراميها وفي مداها . وعالمنا المحدود في حركتنا النسوية عجز عن أن يتسع لاصلاحها وآمالها وأدبها وشاعريتها ، فاتجهت الى ميادين الادب والاجتماع يدفعها نبوغ خاص وعبقرية نادرة ، يهيء لها ذلك استعداد فطرى حبتها به الطبيعة ، فاهتزت لها أعواد المنابر خطيبة بارعة ومحاضرة لبقة . وعطرت كل نادٍ بشذا من أحاديثها . وتركت حيثما حلت أثراً طيباً . وأخذت مي الكتابة تبهر كتاباتها في الصحف وتتدفق خطبها على المنابر ، وتتوالى كتبها في سوق الادب مترجمةً مرة ، ومؤلفة أخرى . ولم تغفل مي حق جنسها ، وفرض اخواتها ، فكان للمرأة من ابحاثها الأدبية نصيب ، ولعل دراستها العميقة الممتعة ، المملوءة بكثير من التقصي والدقة عن وردة اليازجي ، وعائشة التيمورية ، وباحثة البادية (ملك حفني ناصف) لعلَّ تلك الدراسات التي نشرت في المقتطف وطبع بعضها مستقلاً في كتاب هي مظهر من مظاهر وفاء مي لبنات جنسها ، وحرصها على اظهار فضلهن أينما وجد . على أن مكان مي «الفتاة» في الادب وعملها في الكتابة والتأليف لم يعلِ شأن المرأة الشرقية عامة والمصرية خاصة . فهو مكان رفيع تغتبط به حركتنا النسائية وتعده دليلاً آخر ساطعاً على مكان المرأة

فلم يكن مجد مي لها وحدها ، ولم تكن شهرتها خاصة بها ولكنهُ مجد تفتخر به المرأة الشرقية ، وشهرة تتمتع بها كل ناطقة باللغة العربية

٦ — فسألت عصمتها : (كانت مي تميل الى الاحزان في كتابتها ويبدو ذلك في مقدمة كتابها الذي ترجته عن الالمانية لفردريك مكس مولر . فهل كان الحزن طبيعة فيها أم عارضاً عليها؟)

فأجابت : لقد عرفت ميّا في ريعان شبابها وإبان نشاطها ، عرفتها والقوى الجبارة تتنازع جسدها وقلبها وروحها . وكنت دائمة قلقة عليها — خائفة أن تعصف بها تلك القوى العنيفة فتذبلها قبل أوانها ، أو تقضي عليها قبل حينها

وكنت أخشى أن هذه القوى الموهبة للصم الصلاب قد تؤثر في نفس مي اسوأ الأثر اذا ما رماها الزمان بنكبة ، او ابتلاها بمحنة . وقد كان ذلك . فقد أصيبت مي بفقد والديها وكان فقدهما تباعاً — كأنهما كانا على ميعاد قريب — فتأثرت أبلغ التأثر ، واستسلمت الى الأحزان تطغى عليها والهموم تأكل قلبها وللآلام المضنية المبرحة تعصف بها في كل لحظة وتلازمها في كل خطوة

وآثرت مي الاجتماعية المحبة للناس المتحدثة الى الجماهير ، أن تركن الى العزلة تخفي فيها عزاءها ، وتستسلم الى الوحدة تلتمس فيها راحتها

واستأنست مي بوحشتها ، واجتمعت مي بوحدتها وعزلتها وكانت فذة في أحزانها ، غريبة في همومها وآلامها كما كانت فذة في عبقريتها وبين بنات جنسها

وظلت كذلك في هموم مقيمة مقعدة ووساوس باقية ثابتة ، تخاف من الهمس وتفزع من الشبح ، وتحذر من الانس حتى ملكت عليها الاحزان ، واصطلحت عليها العلل — العلل القاسية المبرحة — على العقل والجسد — ووقفت القوة التي كانت تمدها بالحيوية ، وجفت الينابيع التي كانت تغذيها بالماء ، وأظلمت الآفاق التي كانت تشع امام عينيها بالسوداوين السرور والبهجة والهناء

وصارت كالزهرة لا شمس ولا ماء ، ولا ضوء ولا هواء فذبلت وكان ذبولها أليماً ، وتساقطت اوراقها ورقة اثر ورقة

ولكن شذا الزهرة مازال متضوعاً وأريج الزهرة مازال عبقاً وسيظل المثقفون والمفكرون والكاتبون والمفكرون يذكرون تلك الزهرة التي عوجلت قبل الاوان ، وخطفت قبل الحين.

فاذا مروا بروضة من رياض الفكر ، أو حقل من حقول الادب، تعرفوا على مكان هذه الزهرة وقالوا (هنا مكان زهرة ذابلة ولكنها ما تزال فواحة الأريج)

حضرة صاحب العزة

الدكتور طه حسين بك

مراقب الثقافة العامة

في حفل تأبين مي وقف رجل متزن الخطوة ، هادىء الوقفة ، يبدو على ملامح وجهه آثار حزن عميق وألم دفين

وقف هذا الرجل ، وكثيراً ما سمعناه على المنابر محاضراً من طراز رفيع ، وخطيباً طال ما وقف تلك الليلة من مساء ٤ ديسمبر يستهل الكلام بشعر عربي رصين

لم يكن هذا الشعر شعره ، ولم يكن الرجل في تلك الليلة إلا راوياً أبياتاً أعجبته من ذي الرمة ، فراح يلقيها في أداء حسن ، وإلقاء متئد ، يخرج الحروف مخارجها ، ويعطي الكلمات قيمها . وقف هذا الرجل ينشد هذه الأبيات :

خليليّ عُدّا حاجتي من هواكما ... ومن ذا يواسي النفس إلا خليلها ؟
ألمّا بمي قبل أن تطرح النوى ... بنا مطرحاً او قبل بين يزيلها
فإلاّ يكن إلا تعلّل ساعة ... قليلاً فإني نافع لي قليلها

وكثير من السامعين لم يعلموا أن هذه الأبيات لذي الرمة الشاعر الأموي ، وكثير منهم ظن ان للدكتور طه حسين انقلب شاعراً بعد أن رسخت في النثر قدمه وعلت في الكتابة مكانته

ولكن قليلاً من هؤلاء السامعين أدرك أن طه حسين ينشد هذه الأبيات الثلاثة في حفل مي ابنة القرن العشرين ، وهي أبيات قيلت في مي ابنة العصر الاموي

وقف الدكتور طه حسين في حفل تأبين مي يستعرض ماضياً جيلاً طويلاً ، حافلاً بنفيس الصور ، وبديع الآثار

وقف يصف كيف عرفها في الجامعة القديمة سنة ١٩١٣ حينما وقفت تعقب على كلمة أرسلها الشاعر الثائر جبران خليل جبران من نيويورك لتكريم الشاعر خليل بك مطران

وقف يصفها في اقبالها على العلم وإكبابها على الدرس ، والحاحها على طلب المعرفة من مظانها ، والحكمة من مواضعها

واعتذر الدكتور عن مجانبة التفصيل في الحديث عن مي يوم تأبينها لان ذلك يقتضي درساً لم تتهيأ له هذه الاجتماعات التأبينية والحفلات التذكارية التي يراد بها الوفاء والتذكر ، وارسال التحيات من القلوب المخلصة لتصل الى النفس المخلصة

ولقد كان الدكتور جبلاً في وفائه لمي ، نبيلاً في اخلاصه ، وكان منصفاً لها حين سجل حسنتين من حسناتها وأشار بنوع خاص الى أثرهما في حياتنا الادبية : الاولى منتداها الذي كان ملتقى المثقفين ومجتمع المفكرين من أهل مصر وسوريا ، ومن أهل الشرق والغرب ، ومن رجال العلم والأدب . والثانية تأثرها بالمحاضرة التي القاها احمد لطفي السيد باشا في نادي المدارس العليا عن أبي العلاء وأخذها موضوع المحاضرة على انهُ موضوع جدير بالتفكير

وختم الدكتور طه حسين كلمته في تأبين ميّ بالابيات التي افتتحها بها ، وكرّر البيت الأخير مرّة ثالثة وهو

فالاّ يكن إلاّ تعلل ساعة قليلاً فأني نافع لي قليلها

***

..... وانتهى حفل مي ، وانصرف الناس بعد ما أدوا واجب الوفاء لفتاة كان من طبعها الوفاء لوطنها ولغتها وجنسها ، وانتقلوا من جوّ كان يسوده الجلال وتخيم عليه الرهبة ، ويغشيه السكون الى جو امتلأ بالمناقشة والمجادلة . . أي الخطباء أجاد ، وأي الشعراء أصاب ، وأي النواحي من حياة مي أغفلت ، وأي المسائل أهملت ....

وتقدمتُ من الدكتور أصافحه باليد ، وأحييه باسم المقتطف ، وأذكر له اسمي ولا أعرف ان كان له ذاكراً أم ناسياً ؟ فألقى منهُ اللقاء الجميل ، والرد الجميل ، ويتفضل باجابة دعوة «المقتطف» الى الحديث ولكن يؤجلهُ الى يوم يقل فيه الشغل ، ويتسع فيه الوقت وتواتي فيه أسباب الحديث

ويجلس الدكتور طه حسين بك في قاعة من قاعات الاتحاد النسائي ليستمع الى حديث من السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي ، ويجلس بجانبه خليل بك مطران وبعض السيدات ؛ وأتخذ مكاني قريباً منهم لأسمع صوت طه حسين من قرب كما سمعته «من بعيد»

ليست صناعة الاحاديث مع الرجال — وخاصة كبارهم وأهل المكانة منهم — عملاً هيناً او أمراً يسيراً ، ولقد شرفني «المقتطف» بانابتي عنها في الحديث مع نيف من أهل الأدب والفضل ممن كانت لهم بمي صلات وذكريات

وليست ظروف التحدث مهيأة في كل وقت وفق رغبة الراغب ، وأمل الطالب ؛ فهناك قد تكون الشاغل والشواغل ، وهناك ايضاً قد تكون العقبات والحوائل ....

ولكن مشاغل الدكتور طه حسين لم تمنعه من التفضل بالحديث في الوقت الملائم

وأسلوب الدكتور طه حسين — سواء أتحدثاً كان أم كاتباً — هو أسلوب السلاسة واليسر فلا يتكلف لفظاً ، ولا يتصنع عبارة ، ولكنهُ يجري على نحو من السهولة يظن القارىء أو

السامع انه مستطيعها، وينتهي الى غاية من السلاسة تخيل الى من يراها انه مدركها ، فاذا دون ذلك أهوال

والدكتور طه حسين يتأبى على كل قيد ، ويمتنع على كل ارادة غير ارادته

وضعت له بضعة أسئلة تجلي بعض الغوامض من حياة مي ، وتتصل ببعض ما أجمله القائلون عنها ؛ فلم ترقه طريقة السؤال والجواب وآثر عليها طريقة الحديث المرسل والكلام المطلق ..... وهو في هذا يشبه خليل بك مطران الذي لم يلتفت الى أسئلتي مطلقاً ، وآثر ان يحدثني في ساعة وبعض ساعة حديثاً عن مي الشاعرة لم أقطعه عليه بسؤال ما .

كان الدكتور طه حسين من المعجبين بمي المترددين على صالونها ، وله في هذا « الصالون » ذكريات سيتحدث عنها فيما يلي من القول

« وكان الدكتور يعجبه من هذا « الصالون » اتساعه لمذاهب القول واشتات الكلام وفنون الأدب ، ويعجبه منه أنه مكان للحديث بكل لسان ومنتدى للكلام في كل علم ، ومتلقى لطوائف من غير تفريق . فلا تعالي بينهم ، ولا اختلاف فيهم ، بل هم أهل ندوة واحدة ألفهم الأدب ووثقت بينهم المعرفة وجمعتهم الحكمة يغدون ويسرون في اخاء تالد على اختلاف مذاهبهم وتباين مشاربهم ، وتفاوت مراتبهم . فهم كما قال أبو تمام

إن يُكْدِ مطَّرَفُ الإخاء فإننا نغدو ونسري في إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدّر من غمام واحد
أو يفترق نسبٌ يؤلّفْ بيننا أدبٌ أقمناه مقام الوالد

وكان أشد ما يغتبط له الدكتور طه حسين أنه وجد الطريق الى منتدى مي ميسوراً ، لم تعقه الأشواك ولم تدم من اجله الأقدام ... وصل اليه وهو طالب في عهد الفتوة لم تنعقد له ألوية الشهرة ولم تثبت له بعد منزلة الأديب . وفي هذا الحديث الممتع الذي تفضل به على « المقتطف » صور من حياة مي بعضها بهيج ، وبعضها مؤلم حزين

ولكن ميا قد ماتت ، ماتت حياتها الأموية من قبل ، وكما تموت مميتات بعد ، وان البقاء لله ، ولأجسامنا النهاية العفاء والدثور ....

ولكن ذكرى مي ستظل خالدة ومصاحبة الأموات بالذكرى — ولو أن بيننا وبينهم جنادل وصفائح — هو نوع جميل من الصحبة الدائمة والحسرة الباقية وصفه الدكتور طه حسين نفسه بقوله : [وما أعرف شيئاً أوفى في العشرة ، وأحرص في المصاحبة من الموتى اذا كانوا أعزاء على نفوسنا ، وكانوا ينزلون في قلوبنا] وفيما يلي حديث حضرته : —

ظهرت مي في حياتها الادبية مظهرين مختلفين أشد الاختلاف وأثرت بهذين المظهرين كليهما في الحياة الادبية العربية تأثيراً عميقاً جداً، ظهرت بعض صوره اثناء حياة ميّ وستظهر بعض صوره الاخرى بعد وفاتها بزمن قصير أو طويل. فأما اول هذين المظهرين فهو مظهر الادبية البرزة التي لا تحتجب ولا تستحي ولا تلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضي الظروف لقاءهم، وانما تنظم الاجتماعات الادبية التي يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكاً حراً سمحاً فيه كثير جداً من الرقي والامتياز. تنظم هذه الاجتماعات في بيتها وتشترك في كل اجتماع يشبهها اذا كان خارج بيتها. وليس من شك في ان الصالون الذي تستقبل المرأة فيه رجالاً يتحدثون فيما يتصل بالحياة العقلية من قريب او بعيد لم يكن جديداً في حياتنا العربية بل لم يكن جديداً في حياتنا المعاصرة. فقد عرف هذا القرن الذي نحن فيه صالوناً من هذه الصالونات على الاقل، كان بعيد الاثر جداً في حياتنا السياسية والاجتماعية. وهو صالون الاميرة نازلي رحمها الله. فقد كانت تستقبل في دورها بعابدين كبار المصريين والاوربيين. وكانت الاحاديث في هذا الصالون تتصل غالباً بالمسائل السياسية ومسائل الاصلاح الاجتماعي والديني التي كان الناس يشغلون بها في ذلك الوقت. وكان سعد وقاسم ومحمد عبده وحسن عبد الرازق وحسن عاصم يشهدون هذه الاجتماعات ويختلفون فيها ويشاركون في كل ما يدور فيها من الاحاديث. وكانت آثار ذلك تظهر في الحياة العامة لهؤلاء الناس. ولكن صالون الاميرة نازلي كان ارستقراطياً ان صحّ ان الارستقراطية توجد في مصر، وهو على كل حال كان ضيقاً مغلقاً لا يصل اليه الا الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية الى مقام ممتاز. ولم تكن الحياة الادبية الخالصة تشغل الذين كانوا يختلفون الى هذا النادي

فأما صالون ميّ فقد كان ديمقراطياً او قل انه كان مفتوحاً لا يُردّ عنه الذين لم يبلغوا [illegible] في الحياة المصرية وربما كانوا يسعون اليه وربما كانت ميّ تدعوهم اليه استدراجاً فيلقون الناس ويتعرفون الى اصحاب المنزلة الممتازة ويكون ذلك [illegible] في تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم. وأنا اذكر أني أنا انما عرفت صالون ميّ على عهد الصبا بعد ان توفيت [illegible] التي أذاعها في الجامعة حينئذ وطلبت الى استاذها واستاذي لطفي السيد أن [illegible] في صالونها. وكذلك عرفتها في هذا الصالون وترددت عليها في أيام الثلاثاء الى أن سافرت الى اوربا. وقد رجعت الى مصر بعد سنة ذقت فيها اشهراً ولاقيت فيها ميّاً في ايام الثلاثاء كما كنت ألقاها قبل السفر.

وكان الذين يختلفون الى هذا الصالون متفاوتين تفاوتاً شديداً فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية وعلى تفاوت اسنانهم ايضاً، وكان منهم السوريون وكان

منهم الأوربيون على اختلاف شعوبهم وكان منهم الرجال والنساء، وكانوا يتحدثون في كل شيء ويتحدثون بلغات مختلفة وبالعربية والفرنسية وبالانكليزية خاصة . وربما استمعوا لقصيدة تنشد او مقالة تقرأ او قطعة موسيقية تعزف او أغنية تنفذ الى القلوب . وقد أتيح لي ان أكون من خاصة ميّ بفضل الاستاذ لطفي السيد فكنت أتأخر في الصالون حتى ينصرف الزائرون وما أكثر الليالي التي انصرف فيها الزائرون جميعاً ولم يبق منهم الا الاستاذ لطفي السيد ومحمد حسن نائل المرصفي رحمه الله وأنا . وفي ذلك الوقت كانت ميّ تفرغ لنا وتفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها ومن انشادها ومن عزفها ومن غنائها . ويظهر أني لن أنسى صوت ميّ حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة « ياحنية » وتغنينا في اللغات المختلفة وفي اللهجات العربية المختلفة ايضاً

***

وقد اتصلت حياة ميّ على هذا النحو مؤثرة بهذه الاجتماعات المنظمة في البيئات المختلفة للادباء والمتأدبين والمفكرين ورجال الأعمال ايضاً . اتصلت هذه الحياة اعواماً غير قليلة وظهرت آثارها في كثير من انتاج هؤلاء الناس . وما أشك في ان صالون ميّ قد اتخذ مثالاً لصالونات اخرى فتحت ابوابها فيما بعد . فميّ قد أحيت بهذا الصالون سنة عربية قديمة ثم نقلت الى مصر سنة اوربية قديمة وحديثة فهذا هو المظهر الاول لحياة مي

***

أما المظهر الثاني الذي اشرت اليه فهو مظهر ميّ التي آثرت الوحدة وألحت على نفسها في العزلة وقد مضت في طريقها الى العزلة مضيّاً رفيقاً او قل انها تدرجت في هذه الطريق تدرجاً بطيئاً اول الامر ولكنها سريع ملح آخر الامر أخذ سبيلها الى العزلة يظهر بعد ان فقدت ابويها ، وبعد ان غمر الحزن نفسها المشرقة، ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأة وانما قللت لقاءهم وتجنبت ما يدعو الى هذا اللقاء وأخذت لا تلقى الناس الا بميعاد يطلبونه وتستشار بمذكرات لتحديده . وأخذت المذكرات تبخل بهذا التحديد شيئاً فشيئاً حتى اصبح لقاء ميّ مقتصراً على اصدقائها الادنين ، وكنت بين القلة منهم في هذه الصداقة فكنا نلقاها بين حين وحين فنستخلص لانفسنا من الدهر ونختلس ساعة أو ساعات نتحدث فيها ادباً وفلسفة جادّين حيناً ومازحين حيناً آخر . وكان ثالثنا في هذه الاجتماعات . وكان لنا رابع يحضرنا دائماً ولكنه لم يكن يفهم عنا . ولعلنا نحن كنا نفهم عنه كثيراً وهو ذلك الابريق الذي كان مملوءاً دائماً بشراب الورد . والذي كنا نستقيه غير مرة في هذه المجالس العذبة المرة . فقد كانت هذه المجالس مرة في كثير من الاوقات . ذلك ان ميّاً كانت في طور

الحزن اللاذع والألم الممض والتشاؤم الذي كان يسرع اليها كلما كانت تسرح اليه وطالما ذاعت منها هذا التشاؤم وطالما حاولت ان أرد عنها هذا الحزن المهلك ولكني لم أكن أوفق الى النجاح الا ليردني الاخفاق عما كنت أريد ردًّا عنيفاً . وكنت اريد ان استنقذ ميًّا من تشاؤم ابي العلاء كما كنت اريد ان استنقذها من الاسراف في التأثر برجال الدين . ولكن ابا العلاء ورجال الدين كانوا أقوى مني ومن غيري ايضاً . وربما كان أظهر شيء لزم حياة مي في هذا الطور من أطوارها حبها لحياة القدماء وآثارهم وإلحاحها في قراءة التاريخ وحرصها على زيارة الآثار والوقوف امامها صامتة مرة ومتحدثة اليها أو متحدثة عنها مرة أخرى . وقد ألححت عليها غير مرة في الخروج من دارها للرياضة فكانت تمتنع وتأبى، ولكنها قالت لي ذات يوم إن كنت تريد أن أخرج فاصحبني الى الهرم فاني أحب أن أشهد هذه الآثار وان أقف موقف عبرة واتعاظ امام ابي الهول . وقد صحبتها الى هذه الآثار غير مرة وكانت احاديثها عن الروح المصري القديم من أروع الاحاديث وأعمقها تأثيراً في النفوس . ثم تتخفف ميّ من علاقاتها الاجتماعية شيئاً فشيئاً ويصعب علينا حتى اقناعها بشهود الاجتماعات التي كان يعقدها نادي القلم . ويحتمل الاستاذ خليل ثابت مشقة عظيمة في اقناعها بحضور بعض هذه الاجتماعات . وتسافر ميّ وتعود وقد قطعت صلاتها بأكثر الناس وكنت منهم . واذا هي تؤثر ان تلقاني في كتبي وفيما انشر من الفصول . ثم يأتينا نعي ميّ ذات صباح

هذه العزلة التي آثرتها ميّ في آخر حياتها لم يقتصر أثرها على ميّ وحدها وقد ذاقت ميّ مرارتها وبلت آلامها، ولكن الناس كانوا يعرفون هذه العزلة وكانوا يعرفون ما كانت ميّ تحتمل فيها من الآلام وكانوا يألمون لها ويضيقون بها ولكنهم كانوا يفكرون فيها ويلتمسون لها ألوان العلل في حياة ميّ العقلية وفي المثل الأدبية التي كانت تنظر فيها ميّ كثيراً

وقد يكون من الغريب أن نلاحظ أن ميًّا بهذين المظهرين المتناقضين من مظاهر حياتها قد أحيت سنّة « خرقاء » وهي التي قال فيها الشاعر القديم

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

فلم تكن زيارة القاهرة تتم دون لقاء مي ، كما أحيت سنة أبي العلاء بعزلتها تلك ومن المحقق أيضاً ان الادب العربي القديم قد انتفع بسنة خرقاء كما انتفع بسنة ابي العلاء . ومن المحقق ايضاً ان الادب العربي الحديث قد انتفع وسينتفع بهذين الطورين من أطوار حياة مي . رحمها الله

حضرة الأستاذ

عباس محمود العقاد

عضو مجلس النواب ، ومجمع فؤاد الأول للغة العربية

للأستاذ العقاد مقام معلوم في عالم الأدب ، وتمتاز كتبه وكتاباته بعمق التفكير ، وغزارة الاطلاع ، وهو على كثرة انتاجه في التأليف ما يزال يتحف الصحف الأدبية بمقالات تعجب الذين يتابعونها ، جمعت الى قوة الأسلوب وشدة أسره ، الوضوح والنصاعة في التعبير عن الفكرة وتصويرها

وكان الأستاذ كثير الصلات بمي [illegible] ، وأعجب بذكائها وألمعيتها ، وعنده عنها معين من الذكريات لا ينضب ، وفيض لا يغيض . حديثه عنها حديث المنيء الخبير . وما احتاج في خلال الأسئلة الى أن يكد ذهنه في استحضار ماض بعيد ، او الاستشهاد بحادثة معينة . وقد خيل الي وأنا أصغي اليه انه استعرض ماضيه مع مي لحظة فلحظة ، وأن صور الأيام كانت تمر بخاطره سريعة متعاقبة

ويحتفظ العقاد بكل ما كتبت « مي » من مؤلفات ولقد ردت اليه — حين ألحت عليها العلة ، واصطلحت عليها الهموم — جميع رسائله اليها ، كما ردت الى غيره ممن راسلوها رسائلهم . ولقد أطلعني الأستاذ على جملة هذه الرسائل ولم يطلعني على تفصيلها . أما رسائلها اليه فقد ردها اليها وهي محفوظة مع ما وجد عندها من مخلفات وآثار . ولعله مرغم بما وعد من الكتابة عن [illegible] أولى الناس بالكتابة عنها ، وأجدرهم بالتحدث عن أدبها وفنها ، وعبقريتها ونبوغها ، وأقدرهم على تصوير دقائق نفسها وهي تدير الأحاديث ، وتوجه الكلام

يؤمن بعض المشتغلين بالآثار ، المنقبين في الصخور الصم ، وفي الرمال الصفر ، الكاشفين عن الكنوز المكنونة والجثث المدفونة ، بأن للموتى لعنات قد تنصب على الكاشفين وسخطات قد توجه الى المتسببين المغامرين فتصيبهم منها المكاره او تدركهم بسببها المعاطب

وأنا أومن بأن للموتى — الى ذلك — رحمات تحمى النار اللافحة فتبرد وتلمس الصخور القاسية فتلين [illegible] وأن لهم نفحات من عالم الغيب ، ومن وراء الحجب ، تخترق الأستار وتمزق الغشاوات فتصل الى أرضنا تنشر فيها المحبة ، وتشيع فيها الرحمة ، وتصل الوداد المقطوع والحبل المصروم ، وتؤلف بين القلوب وتجمع بين البعيد والقريب ...

وكذلك [illegible] مي [illegible] أحسن الله اليها . فقد أتاحت لي ان أرى « العقاد » بعد

غياب سنوات . . . وان استأنس الى « العقاد » بعد وحشة سنوات . اما « كراهة » من « مي » . وفضل صروف رئيس تحرير المقتطف . ونبل من « العقاد »

ولقد عرّفتني « ميّ » الى العقاد من جديد ووصلتني روحها بي عوداً على بدء . اذا بي في داره في « هليوبوليس » كما كنت بالأمس البعيد في مكتبه « بالبلاغ الاسبوعي » واذا بي أستمع الى صوت «العقاد» الذي طال عليّ العهد به

واذا بالعقاد يجيب عن كل سؤال من أسئلة وضعتها لهعن « مي » . واذا بي ألمح من ثنايا كلامه ومن خلال حديثه ألم الحسرة ، وحُرَق اللوعة لفقد « مي » . فهو يتحسر على ... في نديها ، وعلى الخلو من حديثها ، والشجيّ من لحنها . ويتذكر « ميّا » في التماع ذكائها ، ونافذ رأيها ، واستواء حجتها ، واعتدال فكرها . ويعجب أين ذهبت هذه البشاشات ، وولت هذه القسمات وانطفأ ذلك الشعاع وجفت هذه الورقات وطويت هذه الصفحات ؟

لا تعجب أيها الاستاذ ! فتلك من روى الاخيار وعرف الأسرار ، وقد أجبت أنت نفسك عن هذا السؤال حين قلت في شعر حافلٍ بالحكمة والحسرة من قصيدتك في رثاء « مي »

« كل هذا في التراب آه من هذا التراب »

***

١ — سألته : (ما أحب كتب ميّ الى نفس الاستاذ : فأجاب بما يأتي)

(باحثة البادية) يمثل اكبر جانب من تفكيرها وطبيعتها وأسلوبها . واعتقد أن الآنسة ميّ كانية معتدلة بعيدة عن التطرح في الأثيريات والخياليات . فهي أقرب الى المحسوس الذاتي منها الى الطيران البعيد ولذلك كانت في حياتها كلها أقرب الى المحافظة وأدنى الى التمسك بالتقاليد . فالفرق بعيد بينها وبين كاتب مثل جبران خليل جبران فهو يمثل الخياليات ويسبح في الأثيريات . وليس في كتابتها جنوح الى الغموض أو ميل الى اصطناع الأسرار على النحو الذي يشاهد في كتابات بعض أدباء المهجر وخاصة جبران

ومما يلاحظ انها كانت تعجب بجبران . وكانت تناقشني في نقدي اياه ، فكنت أقول لها ان اعجابك هذا انما هو اعجاب المناقضة لا اعجاب المماثلة . وأعني بذلك أن الانسان اما أن يعجب بصفة فيه موجودة في غيره على شكل أعظم وأوسع . واما أن يعجب بصفة ليست فيه ولكنه يرجو أن يتصف بها أو يكمل صفاته باضافتها اليها . فميّ في وضوحها واستقامة تفكيرها وبعدها عما سميناه بالأثيريات والخياليات هي في الواقع نقيض جبران — وان كنت لا أخفي قدحاً في هذا الكاتب الذي له ولا شك منزلته في الأدب ومزاياه في الكتابة

٢ — فسألته : (في الطبعة الاولى من ابتسامات ودموع تصرفت مي في ترجمة الكتاب عن فردريك مكس مولر الالماني وفي الطبعة الثانية تقيدت بالاصل معنىً وتعبيراً كما تقول هي نفسها في المقدمة . فهل كان لهذا العدول رأي خارج عنها ؟ أم فعلته مختارة ؟ وما رأيكم في تصرف الكاتب فيما يترجمه ؟)

فكان جوابهُ : لا أذكر أن هناك نقداً وجه الى الترجمة الاولى ، أو لعلي قرأت نقداً وغاب عني . انما أعلم انها رحمها الله ، كانت شديدة التبرم بالنقد وكانت تتقيه كثيراً ولو تبين لها أنه صادر عن نية حسنة . فاذا حدث أنها تعرضت لنقد في سبيل التصرف في الترجمة فاني أعتقد أن هذا لما أعلمهُ من مزاجها ، وحدهُ كافٍ للعدول عن هذا التصرف أو لاستدراكه اذا أتيح لها أن تستدركه

أما رأيي في تصرف المترجم بالترجمة فهو أنه جائز على شريطة أن المؤلف يقبل هذا التصرف لو عرض عليه . وليس غرضي بالطبع أن يتم العرض فعلاً ، ولكني أريد أن خير تصرف هو الذي يرضاه المؤلفون ويعتقدون انه لا يخرج بالمعنى عما أرادوا

٣ — فسألته : (اذا كانت الطبيعة الجميلة قد استهوت مياً كما تحدثت هي كثيراً عن ذلك في بعض كتبها ، فهل تعرفون لها قبل اضطرابها الاخير حادثاً خرجت فيه عن العالم المدني الصاخب الى العزلة الوحيدة الدائمة في أحضان الطبيعة كما فعل (ثورو) و(لويل) في أميركا . وكما فعل (وردسورث) في منطقة البحيرات بانكلترا ؟)

فأجاب : كل ما أعلمه انها كانت تتحاشى ان تخرج الى الطبيعة منفردة مخافة ان تتعرض لما يساء ذلك من اجتراء بعض المارة ، وانما كانت تغتنم كل فرصة آمنة للرياضة في ضواحي القاهرة وبعض المنازل القريبة منها . كان حبها للطبيعة يتجلى في هيامها بمناظر الغروب أو مناظر السحب وهي مشرفة عليها من حجراتها في بيتها ، حتى كانت تؤثر ان تجلس في هذه الشرفات أيام الشتاء اذا لم يمنعها المطر الغزير من الجلوس فيها

وكانت تتمنى ان تزور مصر وصعيدها الأعلى خاصة لتستمتع بما تتخيله من روعة المناظر الطبيعية فيها ، وكثيراً ما سألتني أن أصف لها تلك المناظر ، وان أريها اياها في رحلة

شتوية كانت — رحمها الله — تفكر فيها كثيراً ولا تفتر من الوقت ما يمهد لها أسبابها، على ان حبها للطبيعة كان محدوداً بما فطرت عليه من الاحتشام والاحتراس، ولولا ذلك ما انقطعت عن غشيانها كما يغشاها كل محب مشغوف بها

٤ — فسألته: (على ذكر الدفاع عن الديمقراطية الآن والمحنة التي تمتحن بها أممها نسألكم رأيكم في الفصل الذي كتبته مي في كتابها المساواة)

فأجاب: أذكر اننا تناقشنا في الديمقراطية مرات ولم نكن على وفاق في كل مرة. وان كان خلافنا على هذه المسألة أقرب الى المفاكهة منه الى الجد والتباين الصحيح في الآراء. فمن ذلك — وكنت أرشح نفسي للانتخاب — أنها أشارت الى حق المرأة في الانتخاب للمجالس النيابية. فقلت لها: انني لو ملكت الامر ما سمحت للمرأة بهذا الحق. قالت ولم؟ فأجبتها لاعتقادي أن المرأة بفطرتها غير ديمقراطية فأنكرت ذلك اشد الانكار، وصدت اسألها

ترى لو أعطيت أنت حق الانتخاب — وأنت مي التي لا يشبهها كثيرات من النساء — ثم ذهبت الى الصندوق وذهب اليه مرشحان أحدهما يسير على قدميه والآخر يركب سيارة فخمة من أنفس طراز فهل تظنين انك تفضلين المرشح السائر على قدميه، أو تفضلين المرشح صاحب السيارة الفخمة؟ قالت: — لعلي أفضل الأول اذا كان مستحقاً للتفضيل. قلت: — بل لعلك تفضلين الآخر على كل حال. . . ! فتظاهرت بالغضب. والتفتُّ الى السيدة والدتها وكانت تسمع حديثنا. أسألها: ما رأيك يا سيدتي فيمن تؤثره كريمتك بالتفضيل؟ وأنت أعلم بها مني؟

فضحكت وقالت: الحق ان كل امرأة تفضل راكب السيارة على السائر الى صندوق الانتخاب بقدميه. وهنا عادت الآنسة مي تقول: — ولم تظنون ان المرأة مخطئة حتماً في هذا التفضيل؟ ألا يمكن أن يرجع هذا الى بداهة فيها توحي اليها ان تختار من تستقر على يديه الامور ويبتعد بالأمم عن القلاقل والأزمات؟

وانتهى الحديث بيني وبينها بتذكيري [illegible] السراة والنبلاء كانوا في أكثر العهود [illegible] مثار القلاقل والثورات. وما قامت ثورة قط الا على أثر حكم يطغى فيه هؤلاء النبلاء

وفي مرة أخرى كان قيصر روسيا مقبوضاً عليه في انتظار المحاكمة او النفي الى مكان بعيد. وكانت مي تشايع القيصر وترثي له وتنعي على خصومه أن خلعوه واعتقلوه. فكنت أقول لها: انني لا أود الألم والشقاء لانسان، ولاسيما اذا كان هذا الانسان بين أهله وأسرته ولكني كما ذكرت القيصر منفياً لم ينسني ان أنسى رجلاً عظيماً مثل «دستويفسكي» وهو

مني في سجون سيبريا . ولم يسعني ان أنسى ألوف العمال الذين قتلوا أمام قصر الشتاء بأيدي حراس القياصرة . فإن مصائب الكبار لا تنسينا مصائب الصغار . وربما كان الكبير مسؤولاً عن مصيبته ، ولم يكن الصغير مسؤولاً لا عن مصابه ولا عن مصاب الآخرين . وختمت حديثي معها — رحمها الله — بسؤال لم أجب عليه وهو : هل تظن ان خصوم القيصر سيرحمون العمال أو يعاملونهم خيراً من معاملة حراس القيصر ؟ فقلت : علم ذلك عند المستقبل . وعلى هذا النمط كانت تجري مناقشاتنا في موضوع الديمقراطية بحيث لا تتجاوز هذه المناوشات الفكاهية الى التعمق في البحث والمبالغة في الاستقصاء

٥ — فسألته : (كان لي بعض المؤاخذات على افرنجية أسلوبها وتساهلها في اختيار اللفظ العربي الصحيح . فما رأيكم في هذا ؟)

فأجاب هذا الجواب الموجز : لا أظن أنها وقعت في خطإ لغوي كانت تستطيع اجتنابه

٦ — فسألته : (أشرتم في مقال لكم في إحدى المجلات إلى براعة مي في ادارة الحديث فهل نستطيع ان نسمع منكم المزيد في هذا الموضوع ؟)

فكان جوابه : لا يحضرني مثل لذلك أدل على البراعة من ادارتها الحديث في مجلس حضره نحو ثلاثين كاتباً وأديباً ووزيراً للتشاور في الاحتفال بالعيد الخمسيني للمقتطف ، وكان اجتماع هذا المجلس عندما في إبان المنازعات السياسية التي وصلت بكثير من الكتاب والادباء الى حد التخاصم والعداء . وكان منهم من حضر هذا المجلس وهم متشيعون الى شتى الأحزاب منتمون الى مختلف الهيئات. فقضينا عندها ساعتين نسينا فيهما ان في البلد أحزاباً او منازعات سياسية بفضل براعتها في التوفيق بين الآراء والأمزجة ، وقدرتها على توجيه الحديث الى أبعد الموضوعات عن الخلاف والملاحاة . وما أحسب ان أحداً غير مي قد استطاع هذا الذي استطاعته في تلك الايام ، حتى أذكر أني قلت لها وأنا أودعها تلك الليلة : لقد كنت يا آنسة في هذا المساء تحملين معطف (أورفوس)

٧ — فسألته : (ذكرت مي في مقال لها بالمقتطف عدد مارس سنة ١٩٢٧ عن تيودور بن هرون الكبيرة واليأس الذي حاق بنفسه قد ساعدت على زعزعة ايمانه . وقد كانت مي كئيبة طول حياتها بائسة كسيرة القلب في أواخر أيامها ، فما أثر ذلك كله في ايمانها ؟ وهل زعزعت مخاوفها ايمانها ؟)

فكان جوابه: على نقيض ذلك كانت مي في أيام مرضها أشد إيماناً بدينها ولهجاً بموضوعات الدين من سائر أيامها. ومن شواهد ذلك أنها بعد عودتها من رحلة إيطاليا المشؤومة قصت عليّ حديثاً جرى بينها وبين جماعة من الفاشيين كانوا يفخرون بأنهم ورثة الدولة الرومانية القديمة فكان أكبر ما نعته على تلك الدولة امامهم أنها هي التي اضطهدت السيد المسيح. ولا شك أن القدح في دولة كبيرة كالدولة الرومانية القديمة لمثل هذا السبب لا يدل على ضعف في النزعة الدينية، بل يدل على اشتغال الذهن بها أكبر اشتغال. ولا أذكر مناقشة جرت في مجلسها بين ملحد ومؤمن إلا كانت هي في جانب الإيمان بتفكيرها وشعورها على السواء

٨ — فسألته: (هل اطلعتم على شيء من كتبها المكتوبة بغير اللسان العربي؟ وهل تعرفون ترجمة لكتابها «زهرات حلم «Fleurs de Rêve» المكتوب بالفرنسية؟)

فأجاب: لم يترجم كتاب زهرات حلم الى العربية. ولا أذكر اني قرأت لها شيئاً بغير اللسان العربي

٩ — فسألته: (ما الذي تعرفون عن احتراس ميّ في حياتها الاجتماعية؟)

فأجاب: يخيل اليّ أن احتراسها المفرط لازمها من بدء شبابها ثم زادته الحوادث رسوخاً وتشعباً حتى كانت في بعض الأوقات لا تطمئن الى احد ولو كان من أقرب المقربين اليها. وكثيراً ما دعيت الى حفلات بيتية عند صديقاتها من كبريات الأسر فكانت في أكثر الأحيان تجيب بالاعتذار، لأنها كانت تكره الحفلات الراقصة على الخصوص مع اجادتها الرقص ودفاعها عنه فيما كتبته من الرسائل عن باحثة البادية. ويخيل اليّ أنها كانت مطبوعة على التمسك ومصابرة الآلام فضلاً عما لقيته أحياناً من شدائد نفسية تجلت لها في شعور العزلة والشك والاحتراس. وما أظنها كانت تنطلق في حريتها لو سلمت من تلك الشدائد لأنها فيما أرى قد فطرت على الاحتجاز والتضحية. وربما ورثت شيئاً من هذا عن والدتها التي كانت شديدة التمسك بدينها. وكانت لا تطيق أحياناً أن يذكر أمامها أسماء أعلام الفكر ودعاة الحرية الدينية. وقد كانت تسخط مثلاً على رينان كلما ذكرنا نابليه التاثرين من أمثال نيتشه وكارل ماركس وفولتير وأبطال المدنية الحديثة

١٠ — فسألته عن مذكراتها ورسائلها

فأجاب بما يلي: كانت لها مذكرات وتعليقات أدبية لم تطبع، وبعض قصائد ترجمتها من اللغات الاجنبية والقديمة خاصة. ولديها رسائل أدبية لكثير من أعلام الأدب العربي، ولكنها ردت هذه الرسائل الى أصحابها قبل اعتكافها واشتداد المرض عليها

وفقد الرسائل شأن عظيم، لأنها لو جمعت ونشرت لكانت تحفة أدبية رائعة

حضرة السيدة الفاضلة

مدام إيمي خير

١ — سألتها: (ما كان أثر الفجيعة في مي في نفسك، وكيف تلقيت نعيها، وهل كنت على علم بما حدث لها قبل وفاتها بأيام؟)

فأجابت: كان لمصاب مي أثر بالغ في نفسي، وحزن عميق في قلبي، وكان بودي لو قدر لمي أن تموت موتة غير هذه الموتة، وفي ظروف غير هذه الظروف

إن وفاتها صدمة قاسية، ولا شك أن مثل مي في مقامها الأدبي ومقامها الاجتماعي ومكانها في التأليف والكتابة ليعتبر موتها على هذه الصورة فجيعة قاسية. وهنا تنهدت السيدة الفاضلة ثم تابعت الحديث قائلة: شعرت بألم المصاب لمي، وأحسست به إحساساً عميقاً وبودي لو استطاع كل إنسان في مصر أن يعهد لها في أواخر أيامها حياة أهنأ من حياتها التي كانت تحياها

تسألني كيف تلقيت النبأ؟ نعم لقد قرأته في الأهرام في الصباح الباكر. وكان نبأً مفاجئاً، وخبراً مباغتاً. وبلغ من ذهولي له وتأثري به أن تحدثت في المسرة (التلفون) مع خليل بك مطران لتحقق عنده من وفاتها نبأ، وسألته كيف ماتت «مي» هذه الموتة المفاجئة بعد أن قدرنا لها الراحة والهدوء في بيتها الصغير الهادئ.

ولقد كنا جميعاً — نحن أصدقاءها والمتصلين بها — نعلم أنها كانت في بيتها الجديد الصغير لا تحب لقاء أحد. وهي حالة غريبة من حالات النفس طرأت عليها، فلم نشأ — لذلك السبب — أن نثقل عليها بالزيارة أو نزعجها بطلب المقابلة. مؤثرين أن نتركها في هذه العزلة التي اختارتها بنفسها إلى أن يأذن الله في شفائها مترقبين ومعللين نفوسنا بالآمال القوية أن ميا ستعود سيرتها الأولى، وأننا سنعود إلى لقائها ... ولكن الآمال خابت والرجاء ضاع حينما فوجئنا بموتها واختطاف الموت لها من بيننا. ولم أتصل بعلم شيء مما حدث لها قبل وفاتها بأيام ولا وقع في خاطري شيء منه: لأننا تركناها لعناية الله ورعاية الأقدار

٢ — وسألتها: (ما هي النواحي التي كانت تعجبك من مي؟)

فأجابت: لقد كنت أود ميا وأشعر نحوها بحب في كل حين من تودد. وما من ناحية إلا كانت تبعث إعجابي من مي

أعجبني منها ذكاؤها المتوقد ، وذهنها المتيقظ وكانت كل حاسة من حواسها أو جارحة من جوارحها تنم على ذلك الذكاء . فعيناها اللامعتان وتعبيرها المختار ، ونغمة أنفاسها وحسن حديثها ، كل اولئك نمّ على ذكائها كما ينم ريح المسك على انفاسه

تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها ، وتنقلك الى صفها ولو كنت من الملحين في الخصومة الممعنين في المجادلة والمعارضة

وكان فيها الى جانب علمها وفنها جوانب كثيرة وحواش رقيقة من الظرف والنعمة واللين والرقة . فكانت تحترم أمها وأباها ، وتقف أمامهما كما يقف الطفل في حضرة والديه فما قصرت لهما في حق ؛ ولا ضيّعت لهما واجباً . وكان للأسرة عندها على كبير من الاعتبار وموضع من التقدير ؛ فظلت محافظة على المبادىء الأسرية والتقاليد العائلية من غير ان يطوّح بها التفرنج الى الخروج عما رسمته لنفسها من مبدإ ، وما وضعته من خطة

وكانت ميّ متواضعة ، وأعظم ما أعجبني منها هو ظهور تلك الصفة فيها على الرغم من علمها وأدبها ، فما غرها العلم ، ولا زهاها الأدب ؛ ولا نفخ في أوداجها كونها كانت قبلة الوزراء والعلماء والأدباء . فكانت ميّ هذه — ميّ العالمة المتمكنة ، وميّ الاجتماعية المفكرة — تتحدث مع الجاهل فتنزل الى مستواه ؛ من غير ان تشعره بجهله . وبالجملة كان لميّ أدب الرجولة القوية ولطف الأنوثة الوديعة

أنا معجبة بها ، أنا معجبة بها (وكررتها السيدة الفاضلة كثيراً)

٣ — فسألتها : (كيف كانت صداقة مي لبنات جنسها ؟ وهل كان للمرأة مكان في ندبها كما كان للرجال ؟)

فأجابت : كانت ميّ لطيفة مع النساء ، كما كانت مع الرجال ، فهي لطيفة على اختلاف الحالات ، ولم تتوطد بيني وبينها صداقة كما نظن ، ولكنها مع ذلك وثقتها عندي الحبابي غير المحدود مما كانت ميّ محبة لجنسها النسائي ، وأكبر برهان على ذلك كتابتها عن عائشة التيمورية ، وباحثة البادية ، ووردة اليازجي . أفلا تحمل كتابتها عنهن طابع الحب لجنسنا ؟ ألا ترى في ذلك وفاءها لنا ؟ ولعلك تعجب اذا عرفت ان مرات ترددي على ندبها لم تتجاوز ثلاثاً أو أربعاً . ولكن أصحابها من الرجال كانوا أصحابي ، فكان حديثهم عنها يؤكد لي ما رأيته في مرات لقائي إياها . والذي أعرفه ان ندبها كان محط الرجال لأهل العلم والفضل والحكمة من الرجال ؛ فلم يكن يتردد عليه ويختلف اليه من النساء الا قليل — على ما أعرف — وذلك حسبي حرم حضرة صاحب السعادة شكري باشا

٤ — فسألتها : ما رأيك في كتابتها بالفرنسية ؟ وهل قرأت لها كتاب «زهرات حلم» ؟

فأجابت : كل ما أعلمه لها بالفرنسية كتابها «زهرات حلم» وهو كتاب عاطفي ، وفيه كثير من الطموح والجدة والشباب ، وقد خلا من التكلف بقدر ما امتلأ من الشعور . ويمكنك ان تقول انه كتاب فتاة صغيرة شابة الآمال ، فتية القلب ، شاعرية الروح

وأول ما كتبت ميّ بالفرنسية ، وتعليل ذلك بسيط ، فقد تعلمت في مدرسة عين طورة بلبنان اللغة الفرنسية قبل العربية . فكان طبيعيًّا ان تكتب بما تعلمت . فلما أتمت دراستها فهمت ان هذا الطريق الذي اختير لها خطأ ، وأنه من الخير لها والبر بوطنها ان تدرس العربية . فتركت الفرنسية مرة واحدة وبدأت تتعلم لغة العرب — لغة الآباء والاجداد

وفي ذلك الحين قابلت لطفي باشا السيد ، وسمعها تتكلم وتدافع عن الحركة النسائية الشرقية دفاع المؤمن بما يقول ، فتقدم سعادته لتدريس اللغة العربية لها . والحق الذي أنا متوثقة منه ان الاستاذ لطفي باشا السيد هو مدرسها في العربية ...

وظلت ميّ تكتب العربية وتمارس مدارستها ، الى ان مات أبوها اولاً — المرحوم الياس زيادة — صاحب المحروسة ، وماتت أمها ثانياً ، فرجعت ميّ الى اللغة الفرنسية تكتب بها وتقرأ فيها . وأظن تعليل ذلك سهلاً يسيراً ، فإنها لما مات ابواها تذكرت أيام نشأتها وعهد طفولتها ، فربطت الذكريين بما تعلمت من الفرنسية وحنت الى الكتابة بها . وأذكر لها في ذلك الحين مقالاً طريفاً في هذا اللسان تخاطب به عصفوراً صغيراً

وكانت الفرنسية أحب اللغات الاجنبية التي حذقتها الى نفسها ، فكانت تكتب بها بعض رسائلها أكثر من أية لغة أخرى . أما العربية فلها فيها رسائل تعد ثروة ادبية كبيرة

وعجيب ان تتحول ميّ هذا التحول السريع من الفرنسية الى العربية ، حتى تكاد العناية الالهية اختارتها لاتقان العربية بعد ان قطعت في الفرنسية شوطاً بعيداً ، واجتازت مدى كبيراً . وليس ذلك في الحق بعجيب على مثل ميّ في حبها للشرق والشرقيات والعروبة

وتخيل أني لما رأيت ميّ في ثوبها الفرنسي منذ سنة تقريباً ركبني وازع قوي كاد يعاتبها على خلع رداء العروبة . فلما عرفت الداعي حين ذاك وعرفت ذلك الثوب الفرنسي الذي لم يوائم مزاجها ولم يوائمني سعيت ولبست ثوب العربية فزدتني بها وزدتها بي

ولقد بلغ من حب ميّ لشرقيتها ، وحفاظها على عروبتها انها كانت تقدم لضيوفها — وما كان أكثرهم — شراب الورد أو منقوع [illegible] على طريقة شرقية محببة ، فلم تجاوز (المشهور [illegible] في [illegible] [illegible] في [illegible]

٥ — وسألتها: (هل كانت ميّ تعالج نظم الشعر بالفرنسية وإذا كان ذلك فهل تذكرين لها بعض القصائد ؟ وهل عرفت لها رأياً في الشعر العربي قديمه وحديثه ؟)

فأجابت . نعم . وعندها مخطوطات لقصائد فرنسية . وكانت تنوي طبعها قبل وفاتها . وأنا واثقة أن هذا الديوان الذي لم يطبع يفوق ديوانها الأول «زهرات حلم» قوة وشاعرية لأنهُ نتيجة نضجها ، وثمار تجاربها واختباراتها بينما الأول كان أول عمل لها في شبابها حيث الفكر محدود والتجارب قاصرة . ولا أعرف لها رأياً خاصاً في الشعر العربي ولم يقع لي من حديث معها أو حديث عنها شيء من رأيها في هذا الموضوع ، ويخيَّل اليّ انها كانت تحب شعر شوقي بك . وأذكر انها خاطبتني مرة بأننا كنا نسير في طريق واحدة وإلى غاية متحدة ، وهي ان نعمل — من العربية — لغة قواماً بين لغة العلماء ولغة الشعب . وهي بذلك الاتجاه في التفكير تعتبر في طبقة الزعامة من النهضة الحديثة

ويحضرني الآن ذكرى طيبة عن ديوانها «زهرات حلم» فقد اشترته لأساهم في مساعدة جماعة خيرية . فلم تكن ميّ تبغي من ورائه مكسباً مادياً . أو تريد ربحاً مالياً . ولكنها ملحقة الاحسان تمثلت فيها فصرفتها عن شغل المادة وعبادة المال . وهنا تنهدت السيدة الفاضلة ثم قالت (لقد كانت حياة ميّ قصة كاملة ، قصة مملوءة بالمآسي والفواجع ، كما كان موتها مفجعاً)

٦ — فسألتها : (كانت مي باعترافها في بعض كتبها كئيبة حزينة . فما أثر تلك الكآبة في نظرتها الى الحياة ؟ وهل كانت طيبة الأمل في الجنس البشري أم خائبة الأمل فيه ؟ وهل وجدت في غير الكتابة والتأليف عزاء لها عن أحزانها ؟)

فأجابت . ان سبب حزن « ميّ » هو عزلتها في الحياة ووحدتها وانفرادها . لقد كانت ميّ كقمة الجبل الأشم وهي صاربة بعيداً بعيداً في عنان السماء . لقد كانت شاعرة بسموها وذكائها شاعرة بتفردها في عزتها . فعاشت منعزلة في عالم خلقته من ذكائها وصنعته من مواهبها ألا ترى الى قمة الجبل الشاهق كيف استغنت بسموها في آفاق السماء فرضيت بوحدتها ؟ لقد كانت ميّ كذلك . ولكنها مع ذلك لم تحتقر الآخرين بل كانت ترتاح الى احاديثهم وتطمئن نفسها الى عشرتهم وتجد لذة في عالمهم

ولا تنس الناحية العاطفية الجنسية في شقاء ميّ ، فلقد كانت فتاة تأمل أمل الفتيات ، وتحلم أحلام البنات . ولكن الأقدار باعدت بينها وبين الزوج الذي يسعدها ، والبيت الذي يؤنسها — وأعني بيت الزوجية — والاطفال الذين يجعلون للحياة قيمة من حولها ثم حرمتها الأقدار من ذلك كله . وهو شاق على كل امرأة ، عسير على كل فتاة

سألتها مرة عن صحة أبيها وأمها فقالت في لهجة فهمتُ منها كل شيء وأدركت كل معنى «ليس لهما غيري وليس لي غيرهما ....» آه .. كلمات قصيرة تحمل معاني كبيرة. كانت حياة مي لوالديها، وكانت نسمات الحياة في مي لوالديها، وكان عهد مي لوالديها ... وكان تعبيرها لي في هذه الجملة القليلة المثقلة الألفاظ نوعاً من الشكوى عاملاً. وهي شكوى لم تصل على حسب ما يصنع الشاكون والشاكيات. من المؤكد أنها لم تكن سعيدة في حياتها، ولم تكن هانئة حتى على المجد الذي أحرزته، والعرش الذي احتلته. ان في الحياة معاني عميقة. وكلما بعد الانسان عن فهم هذه المعاني وادراكها على وجهها الصحيح زادت متاعبه وتنغصت أيامه وساعاته

لقد ضحت مي بكثير في حياتها وما أعظم ما ضحت به. ضحت بشبابها الناضج الوضيء وذكائها المتوقد الملتهب. وقدمتهما الى الحياة قرباناً غالياً .. ولعلك تذكر الأسطورة الرومانية القديمة عن الربة فستا Vesta والبنات اللائي كن مهمتها ضحية الشباب والحب في الأسطورة فستال (Vestals). لقد كن ضحية الشباب السعيد. فلم يتزوجن ولم يتعلقن بحب واحدة منهن بهوى، وقضين حياتهن منشغلات باشعال نار مقدسة سماوية وامدادها بالحطب الجزل حتى لا تنطفىء فان في انطفائها خراباً عاجلاً لمدينة روما ... وكذلك كانت مي — لقد كانت كواحدة من هؤلاء الفستال .... كانت تجد في الأدب تسلية ومواساة. ولم تجد فيه تعزية، وفرق كبير بين التسلية والتعزية. أي شيء كان يسري عنها من آلامها المتصلة؟ وأي وسيلة كانت تجد فيها مي العزاء عن آلام الزمان والمكان؟ (وهنا عنت لي السيدة الفاضلة ألا يحكم علي في الحياة بما يدعو الى السلوان والعزاء — فلها مثل ما عنت لها)

لقد كانت الكتابة تشغل مياً عن آلامها وأحزانها، مسكينة مي! ولو رأيت جنازتها لرأيت البساطة ممثلة فيها، كان هناك أحمد لطفي السيد باشا — وكنت معه — وأنطون بك الجميل وخليل مطران بك وبعض أصدقائها. لقد كنت راكبة مع لطفي السيد باشا في سيارته خلف نعشها. ولما وصلنا الى الديار البعيدة الساحقة. ديار الأبدية التي لا لقاء بعدها ... ودعناها — تلك الديار التي تفرق منا كل يوم حبيباً، وتخطف عزيزاً — لما وصلنا الى هنالك دنونا من قبرها ولحدها الأخير. فرأيت [illegible] تلقفوها من بين أيدينا ليسلموها الى سكون الموت ووحشة القبر، ويودعوا جسدها التراب

وهناك ... في ديار الفناء، ومقابر السكوت سكتت مي الخطيبة، وماتت مي الخالدة فما سمعنا لها صوتاً ولا سمعنا أحداً يتكلم على قبرها، ولا ارتفع صوت في الكنيسة لتأبينها.

لقد كان السكون عجيباً، والصمت شاملاً فما استطاع انسان أن يخل صمته. وزاد في أسى الجنازة وحزنها منظر الشمس الغائبة في ذلك اليوم. لقد كان كل شيء حزيناً، وكل جو

يُشعر بالأسى والحزن. لقد كانت موتتها تامة ، وكنا نأمل لها خاتمة غير ذلك

٧ — فسألتها : (ماذا قرأت لمي في العربية ، وما أحب كتبها الى نفسك ؟)

فأجابت : يؤسفني أني لم أقرأ لها في العربية كتاباً ، وأرجو ان يتاح لي ذلك : أما في الفرنسية فقد كانت تعجبني بكل ما تكتبه ، وأنا أشبهها بمدام دي ستايل في اثنتين ذكائها المفرط ، ويقظتها الحادة

٨ — فسألتها : (ما هي ميول مي واتجاهاتها نحو الشرق والفكرة الشرقية)

فأجابت : ميّ هي أول امرأة شرقية رزقها الله علماً واسعاً واحاطة تامة بالعلم الغربي والتربية الغربية ، فقد مكن لها تمكنها من بضع لغات أجنبية ومكنت لها أسرارها وثقافتها الخاصة من هذا العلم الواسع ، ولكنها تركت السير في هذا الطريق بمحض ارادتها وخالص اختيارها . وكان تركها قويّاً شديداً . وآثرت ميّ اختيار طريق الشرق واعتزت بذلك اعتزازاً كثيراً . ما كانت ميّ شرقية فقط بل كانت متحمسة للشرق متعصبة له . ولكن هذا الحب الشديد لشرقها وشرقيتها ما كان ليعمي عينها عن عيوب الشرق . فكانت تعرف مواطن ضعفه ، ومواضع وهنه ، وتأمل ان يقوى ويشتد . وتستطيع ان تقول ان أحلام ميّ وآمالها كانت كلها للنهضة الشرقية .وهذا الذي أقوله لك وأنقله عن ميّ لم أقرأه في كتاب من كتبها ، ولكني عرفته من خلال ملاحظتي لحياتها ومتابعتي لأسلوب معيشتها

وكانت ميّ تمجد في مفاخر الشرق القديم وترى فيما سلف من آثاره مجالاً واسعاً للتعبير عن جلاله ... وكانت سعادتها في ان تبقى دائماً « امرأة شرقية» . وكانت حريصة على هذه النسبة الى الشرق معتزة بها دائماً . وما رأيت في حياتي انساناً — ذكراً كان او أنثى — أحب الشرق كما أحبته ميّ ، ولا تعلق بأسباب هواه كما تعلقت ...

وكان واحداً من همومها وآمالها ان تترجم الكنوز الغربية الى لغتنا العربية لانها كانت ترجو من وراء هذا النقل في الافكار والاتصال في الآراء سعادة للشرق في آماله ، وتقدماً له في نهضته . وكان ينشيها الكبرياء نشدرها القومي ، ولكنها تود ان يقترب الشرق من الغرب ليفيد من ثقافته ويكتسب من حضارته .وكانت معجبة بأن تقول عنها . « أنا شرقية» بكل ما تحمله هذه العبارة من معان سامية واسعة . وكان مما يزيد هذه الناحية ظهوراً في ميّ أنها كانت محاطة ببعض الذين يميلون الى المظاهر الغربية . فكانت تمقت تلك المظاهر الكاذبة وترثي للذين يجرون وراءها او يتشبثون بها . وكأنها في كل لحظة من لحظات حياتها وفي كل لون من ألوان عيشها ، وفي كل بقعة من الارض زارتها ، وفي الشرق اذا حلت ، وفي الغرب اذا اغتربت ، كأنها كانت تقول : أنا من الشرق والى الشرق أعود

حضرة صاحب العزة

أنطون بك الجميل

رئيس تحرير الأهرام والعضو بمجلس الشيوخ

من في مصر يجهل مكانة أنطون بك الجميل الأدبية ؟ ومن في البلاد العربية لم يصل الى أذنيه صوت أنطون الجميل حين يعلو منبراً ، أو يلقي حديثاً ، أو يكتب مقالاً ؟

وعجيب جداً أن يتناول أنطون الجميل الأدب فيكون فارس حلبته ، ويدخل معترك الصحافة فيكون ابن بجدتها ، وينزل في ميدان الاقتصاد فيكون خبيراً في الأرباح والأعشار حريصاً على الدرهم والدينار ، ويلج باب السياسة فاذا هو السياسي المحنك ، واللبيب المجرّب . والذكي الألمعي . له ضلع في كل مسألة ، ومشاركة في حل كل معضلة ، فهو طلاع الثنايا ، وأخو النجدات ، وصاحب الغمرات . تراه في « الأهرام » في الصباح والمساء ، وفي الغدو والآصال ، دائباً لا يمل ، متحركاً لا يسكن ، نشيطاً لا يفتر . يكتب كلمة او يقرأ مقالاً ، او يستعرض كتاباً ، او يصغي الى متحدث ، او يتحدث الى مصغ ، او يقصد في رحلة ، او يسعى الى حفل ، او يلقي على « محرر » أمراً ، او يأخذ منه خبراً . وهو في ذلك كله لا يفارقه لطفه ، ولا تزايله بشاشته ، ولا ينبو عنه حلمه

ورقة أنطون الجميل في أحاديثه هي رقته في كتاباته ومقالاته ، فهو يتخير في الحديث اللفظة المعسولة ، والكلمة المقبولة ، كما يتخير في الكلام حين يكتب وحين يخطب . وقد يجتمع في مكتبه — في ساعة واحدة — طوائف شتى مناحي [illegible] ، مختلفو نواحي الثقافة ما بين أديب شاعر ، وكاتب ناثر ، وصحافي بارع ، ونائب محترم ، وشيخ جليل ، ووجيه في قومه او مقدم في عشيرته ، وعالم كبير ، وموظف خطير [illegible] [illegible] حيناً ، ويصغي حيناً آخر ، ويتلطف مع كل جالس ، ويهش لكل قادم . وهو في خلال ذلك يلقي الأمر الى « محرر » ويتلقى الخبر [illegible] ويتحدث الى [illegible] [illegible] الغيرة ، وأخرى مع « صاحب الدولة » . ثم يعود الى وصل ما انقطع من الحديث مع زائريه . فاذا هو عالم بدقيقه وجليله ، محيط بجملته وتفصيله

كثر ما زرته وهو في شغل ، او طرقت عليه باب مكتبه وهو في عمل ، وقد ألفت سابق لطفه ، وما أنوء به من أني أشق عليه بالحضور ، او أثقل عليه بالحضور ، فاذا هو [illegible] الرقيق اللطيف والتبسم النبيل ، فأستعذر له ببيت [illegible] [illegible] [illegible] وهو

فلا تغترر بالشمل عندا فإنما   تناط بك الآمال ما اتصل الشمل

أخذت منهُ موعداً للحديث عن ميّ الى المقتطف، وتمنيت على الله ان أظفر به وحيداً، وأستأنس به منفرداً، وتمنيت على الله أكثر من ذلك ألّا يعرض خلال الحديث ما يشغله، أو لا يتحدث من الأمور ما يصرفه. فاذا الاماني هباء... واذا المنى سدى... واذا انا بالشاعر الكبير والاستاذ الجليل علي بك الجارم يجلس معه. فسلمت وسلم الجارم تسليم البشاشة. وبدأت السؤال «والجبل» يجيب، والجارم «يعلق». وانا بين الأديبين الكاسب المستفيد والرابح الغانم. وتمّ الحديث. وأعلن «الجارم» انتهاء الامتحان! وقد سماه — في نكتته البارعة — امتحاناً. وما هو الأ حديث عن «ميّ» وكانت رحمها الله حديثاً حسناً لمن وعى... ويخرج «الجارم» من جيبه قصيدة طويلة في رثاء المرحوم الشيخ الجليل الاستاذ عبد الوهاب النجار؛ ويشرفني بأن ألقيها فاذا فيها هذا البيت في وصف الدنيا: —

اذا أعطت فقد أعطت قليلاً!   ولا يبقى القليل ولا الأقل

والجارم بك هنا يقصد عدم بقاء المادة الجامدة والاجسام الفانية الزائلة؛ أما حديث الفضل والحسنات، والروح والمعنويات فهو باقٍ لا يدول، خالد لا يزول كما قال الشاعر: —

تدول أحاديث الرجال وتنقضي   ويبقى حديث الفضل والحسنات

وكذلك يبقى حديث «ميّ» الفاضلة المحسنة...

***

١ — سألته: (ما هي أولى ذكرياتكم عن المرحومة ميّ وكيف نشأت الصلة الادبية بينكم وبينها)

فأجاب: عرفتها وكلانا ناشىء في الأدب، ولم يَعْدُ ذلك معرفة الاسم، وقراءة بعض الفصول مما كتبته ميّ ووقعت لي قراءته. ثم أهدت اليّ — وكنت يومئذٍ أصغر عباد الزهور — أول كتاب أخرجته أو أول ديوان من الشعر نظمته. ولم يكن ذلك الكتاب عربيًّا. ولكنه كان أعجميًّا «فرنسيًّا» غير ذي عوج

وأسمته «زهرات حلم» Fleurs de Rêve. وهو اسم كما ترى فيه نضارة الزهر وقد رصّعه الندى بالدر، وفيه سعادة الأحلام وقد صحت

ولم توقع ميّ ديوانها هذا بصريح اسمها، ومشهور لقبها ولكنها وقعته باسم مستعار هو (أيزيس كوبيا). ولاحظت — رحمها الله — في اختيار ذلك الاسم مطابقته في المعنى لاسمها العربي. فايزيس الاهة مصرية قديمة كانت أمًّا لهورس؛ وهي تقابل «ماري» أو «مريم» أم المسيح عليه السلام؛ وكوبيا كلمة لاتينية معناها الزيادة والكثرة؛ وهي تقابل اسم أسرتها

«زيادة» . ومن هذا الأصل اللاتيني جاءت الصفة Copieux بالفرنسية وCopious بالانجليزية

وأتبعت ميّ هديتها الأولى الى (الزهور) بمقال عن ألفريد دي موسيه ، فنشرت المقال في المجلة ، وكتبتُ كلمة عن ديوان شعرها جاء فيها : —

«عرف قراء العربية الكاتبة الأديبة «ميّ» مما نشرته من الروايات الجميلة والمقالات الشائقة والابحاث النفسانية الدقيقة في جريدة «المحروسة» . وقد أتحفتنا بمقالة لطيفة عن «الفرد دي موسيه» نشرناها في غير هذا المكان من هذا الجزء

«وامامنا الآن كتاب شعر فرنسي دقيق ، في ذيله بعض صفحات نثرية جميلة تأليف «ايزيس كوبيا» وايزيس وميّ هما شخص واحد ، والقلم الذي حبّر المقالات والروايات العربية والريشة التي حاكت برد هذه القصائد الفرنسية ، تحملهما يد واحدة ، ويعلو عليهما فكر واحد. والكتاب مجموعة ازهار عطرية نبتت في رياض الاحلام الجميلة ، وهي مهداة الى روح «لامرتين» شاعر القلوب الحزينة ، وهذه الروح المتألمة ترفّ على كل صفحة من صفحاته ونجد الكاتبة تقول في قصيدة «هل هي شاعرة ؟» ما معناه : البكاء والرأفة والحب والألم هذه هي صفات الشاعر

وقد ظهر من الموضوعات التي طرقتها الكاتبة انها لا تصف الاّ ما ترى . ولا تعبر الاّ عما تشعر به . فجاءت منظوماتها صورة حقيقية لما يشغل فكرها ويحرك قلبها، ولذلك انت تشاركها عند تلاوة اشعارها في هذه العواطف أيًّا كان رأيك في القالب الذي سبكتها فيه. ولا تمالك من ان تصبو معها الى مصر ونيلها وآثارها وسهولها ، وتحن معها الى لبنان وجباله وأوديته . واذا كانت «ايزيس كوبيا» شاعرة في نظمها فقد وجدناها أشعر منها في تلك الصفحات النثرية التي ختمت بها «أزهار احلامها» حيث لم تعد مقيدة بقيود القافية والوزن ، وكثيراً ما تكون الازهار المنثورة أجمل من الازهار المضفورة »

وكان مقالها الأول في «الزهور» باكورة توالى بعدها النثر الجني ، وصيّبًا من بعده جاء بعده الغيث المنهمر ، فتتابعت نشر الفصول التي أذكر منها ، ذكرى بعلبك ، والمغنى ، ودمعة الروح ، وكيف نقيس الزمان الخ مما نشر هنالك. تلك أولى ذكرياتي عن ميّ ، وذلك مبدأ الصلة الأدبية بيننا

وكان في منتصف عام ١٩٢٥ أن نشرت (ميّ) دعوة الى الاحتفال بعيد المقتطف الذهبي بعد أن أثارت هي نفسها المناقشة في جعل هذا التكريم للمقتطف مظاهرة أدبية كبيرة في الشرق باشتراك الأمم الشرقية فيه ، وقد لبي نداءها ، وأجاب دعوتها نفر من أهل الفضل والعلم أذكر منهم الدكتور محمد حسين هيكل بك (باشا) وصاحب الفضيلة السيد مصطفى عبد الرازق (باشا) وتوفيق رفعت باشا وأحمد لطفي السيد (باشا) ، والمرحوم احمد بك شوقي امير الشعراء والمرحوم السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار والاساتذة عباس محمود العقاد وابراهيم المازني ويوسف البستاني ...

وادهار جلاد . واجتمعنا الاجتماع التمهيدي الأول في منزل مي ، وألقت علينا خطبة في وجوب التكريم ، ووجوب اشتراك الامم الشرقية والاخوان المصريين في التهجير فيه

وكانت لها في اول اجتماع الكلمة الاولى ، وأذكر من كلامها قولها (يتهمون المرأة بأنها تحب ان تكون لها الكلمة الأخيرة دواماً ، فدفاعاً عن بنات جنسي قلت أنا الكلمة الاولى ، لتنعت النغمة الاولى ، ولتكن الكلمة الحكمة الحصيفة النهائية لحضراتكم ايها السادة الرجال)

ووافق سعادة احمد لطفي السيد باشا (بك يومئذ) على كلمة ميّ ، وتألفت اللجنة من صفوة الرجال وخيرة العلماء والادباء . وشرفتني بأن عهدت اليّ في تنظيم الحفل وتنسيق العمل مع الآنسة ميّ ، فقمنا بهذا العمل معاً ، وقدر الله النجاح لجوبيل المقتطف ، وتم الاحتفال على صورة كرمنا فيها الاخلاص في العلم ، والثبات والتضامن في الجهاد الادبي . ولا شك في أن نصيب ميّ في تكريم المقتطف مما لا ينسى وأن طال به الزمن . ومنذ ذلك الحين توثقت العلائق بيني وبين ميّ ، واستحكمت الصلة الادبية بيننا ، فقد عرفت فيها — في خلال تنظيم الحفل — نشاطاً نادراً ، وجهداً عجيباً . وما رأيتها — مع ما اقتضاه ذلك التنظيم من عمل وسهر — اشتكت نصباً ، او ملت تعباً ، او وهنت لها قوة ، أو سكنت لها حركة

٢ — فسألته : (هل كانت مي تعتني بالادباء في ناديها احتفاءها بالوزراء ورجال السلك السياسي ، أم كان لهم عندها مقام ثانوي الشأن ؟)

فأجاب : كان نادي مي مثال الاندية الأدبية الراقية ، فكان الصدر فيه للأدباء ، والمحل الأول للعلماء ، أما رجال السلك السياسي واصحاب المناصب الكبيرة فكانوا يغشون ناديها ويطرقونه على الغالب بصفة كونهم يسايرون الحركة الفكرية والأدبية ، ويبحثون عما جد فيها من جديد ، أو ظهر فيها من تطور . وكانت ميّ في المحفل الحافل من روادها ، وفي هذا المزيج المختلف من روّاد مجلسها بارعة في توزيع الكلام ، لبقة في توجيه الحديث وفسح المجال أمام كل زائر ليقول كلمته او يدلي برأيه أو ينحو في الجدال منحاه فلا يشعر أحد في هذه الاجتماعات انه غريب عن المحاور أو دخيل فيه . ولعل الحاضر يذكر الابيات التي قالها المرحوم اسماعيل باشا صبري

روحي على دور بعض الحي حائمة كظامىء الطير تواقاً الى الماء
ان لم أمتع بمي ناظري غداً أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

٣ — فسألته : (هل شغلت الاحداث السياسية يوماً الآنسة ميّ عن الادب . وهل تذكر للادب تبرمها من السياسة ؟)

فأجاب: — لم تشغل السياسة ميّاً قط عن الأدب، وكانت تتحاشى الخوض في غمارها أو الدخول في معتركها. ومع ذلك كانت تقرأ معظم الصحف السياسية، وتتتبع أخبار السياسة وتساير تطوراتها فإذا جرّ الحديث في ناديها إلى السياسة وانساق الزائرون في تيارها، وانتقل الكلام من دولة الآداب إلى دولة الأحزاب، رأيت ميّاً وقد تحولت إلى الإصغاء، واتجهت إلى الإنصات وأعرضت عن الكلام جانباً. فإذا ما تناولت الأحداث السياسية في كتاباتها تناولتها من حيث أثرها في الحركة الفكرية والنهضة القومية لأنها كانت كثيرة الاعتزاز بشرقيتها

٤ — فسألته: (ما هي أجمل الصفات التي أعجبتكم من ميّ كفتاة مثقفة لنعرضها على فتياتنا المثقفات)

فأجاب: جمّل الله ميّاً بصفات كثيرة ووهبتها الطبيعة بسخاء، ولعلّ ما يجمل بفتياتنا المثقفات أن يأخذنه عن ميّ شغلها بالدرس والتحصيل من غير إهمال واجباتها الأخرى، والعمل الدائم على استكمال ثقافتها من جميع مناحي النشاط الفكري، والتمسك بعاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا الشرقية على كثرة ما كانت عليه من مسايرة الحضارة الغربية والاطلاع على مظاهرها

ولعلّ هذا الحفاظ من ميّ على تقاليد الشرق وتمسكها بعاداته يبدو متناقضاً مع ثقافتها الأجنبية الواسعة، ولكن ليس بين الاثنين تناقض، فقد طغت فكرة الشرق على تفكيرها فألزمتها بعادات أهلها وتقاليد قومها. فهي لم تدرس ثقافة الغرب لتنسى قومها، ولم تطلع على حضارة الغرب لتتخلى عن مقومات قوميتها وخصائص شرقيتها

٥ — فسألته: (للآنسة ميّ مقال عنوانه «كن سعيداً» ترى فيه السعادة في الشباب والهرم، وتراها في الغنى والفقر وفي الصحة والمرض. فهل كانت ميّ سعيدة على الحالات واختلاف الحالات؟)

فأجاب: هذا سؤال تصعب الإجابة عنه لأن ميّ لم تكن تكشف الستار عن مطويات نفسها ومكنونات قلبها بسهولة. وهل عرفت أنت يا صديقي إنساناً كان سعيداً على الحالات واختلاف الحالات؟ وهل يظل الإنسان إنساناً إذا لم يتألم ويشقَ؟ على أنه قد تكون في الشقاء لذة كما تكون في السعادة. وما قيمة الحياة إذا جرت على نظام واحد، ونسق رتيب؟ وأين إذن حلاوات الجدة بعد الحرمان؟ ولذاذات الهدوء بعد ثوران؟ وقد يكون الإنسان سعيداً في هرمه كما يكون في شبابه. ألم يقل المتنبي: —

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

٦ — فسألته: هل كانت ثقافة ميّ آتية من اطلاعها على الأدب الحديث ومتابعتها

للحركة الادبية المعاصرة ؟ أم استكملت عناصر ثقافتها بدراسة الأدب العربي القديم ؟)

فأجاب : الثقافة عند أمثال ميّ الذين يقرأون ويطالعون كثيراً متعددة المصادر . على انهُ يمكن القول اجمالاً إنها كانت أكثر شغفاً بالاطلاع على الأدب الحديث ومسايرة الحركة الفكرية والأدبية المعاصرة عند مختلف الأمم الشرقية والغربية

ولا يعني ذلك أنها اهملت القديم ، فقد طالعت كثيراً في أدب الأغريق والرومان — أدب أثينا وروما . وكانت متتبعة الأدب العربي الحديث وخاصة أدب المهجر

٧ — فسألته : (هل كانت ميّ ممن يغرهنّ الثناء ويعجبهنّ الاطراء ؟ وهل كانت تزهى بما تكتب أو تعجب بما تنشيء ؟)

فأجاب : — دعني أطرح عليك سؤالاً بدوري : —

هل تعرف أنت يا صديقي احداً لا يستطيب الثناء ، ولا يستلذ الاطراء ، ولا سيما الأديب اذا رأى انهُ يضرب على وتر قلبه فتهتز له أوتار القلوب ، ويترجم عن عواطفه فتتحرك له عواطف الآخرين

ان في ذلك أكبر تعزية للكاتب ، وأعظم اجر يتقاضاه عن عنائه الدائم وجهده المتواصل وليله الساهر وصباحه الباكر . واذا كان يتألم فانه لأنه لم يوفق الى ابراز فكره وشعوره كما يريد . غير ان هذا الرضى وهذه الغبطة يجب ألاّ يبلغا مبلغ الغرور ، ويصلا الى حد الاختيال . ولم تكن ميّ من الغواني اللاتي قال عنهنّ شوقي بك (والغواني يغرهنّ الثناء)

٨ — فسألته : (ما رأيكم في رسائل مي)

فأجاب : — رسائل ميّ يجب الاحتفاظ بها لانها نوع جميل من أدب الرسائل في الأدب العربي ففي الأدب الفرنسي رسائل لأمثال فلوبير وفولتير وغيرهما ، وفي هذه الرسائل تستطيع دراسة الكاتب أكثر من دراسته في مؤلفاته . وعندي لميّ بضع رسائل أعتز بها لانها أثر باق من آثارها . ولقد رأيت فيما رأيت من مخلفاتها ظرفاً خاصاً برسائل ولي الدين يكن

ورأيي أن تجمع رسائلها الى من اتصلوا بها ، ورسائل المتصلين بها اليها ، وتنشر في كتاب خاص ، ففيها ولاشك ثروة كبيرة ، وتراث أدبي نفيس

رحم الله ميّا ، لقد كانت على اطلاع واسع الحدود ، فسيح العالم ، وكانت شخصيتها تلب مستقلة من خلال أفكارها وكتاباتها . فما قلدت كاتباً ، ولا حاكت مؤلفاً ، ولكنها ترجمت خلجات نفسها ، ووحي ضميرها ، وسر شعورها . وكانت رفيعة في نقدها ، رقيقة في مخالفة رأي غيرها . فما آذت شعوراً ، ولا جرحت احساساً

حضرة صاحب العزة الدكتور

منصور فهمي بك

مدير دار الكتب المصرية

الدكتور منصور بك فهمي مدير لدار الكتب المصرية ، تلك الدار التي اجتمعت فيها كنوز الفكر العربي ، وانتهى اليها منثور الآداب ، ومنتخل الأفكار ما بين مطبوع ومخطوط . وقد كان الدكتور قبل ذلك أستاذاً في الجامعة المصرية وله تلاميذ كثيرون استفادوا بعلمه ، وانتفعوا بأدبه . وله مكان ملحوظ في عالم الفكر العربي ، وهو بغير شك — الى جانب ناحيته الفلسفية — من زعماء الادب في العصر الحديث

وقد أشار الدكتور تشارلس آدمز مؤلف كتاب « الاسلام والتجديد في مصر » اشارة طيبة الى الدكتور منصور فهمي في خلال كلامه عن الجيل المعاصر من المحدثين . وأشار الى كتابه « خطرات نفس » بأنه مقالات تكشف عن خلق ورقي ورعاية للدين وتهكم بالمحافظة الجامدة واحترام لحرية الفكر ولحق الفرد في استخدام مواهبه العقلية . عرف الدكتور منصور فهمي كثيراً عن ميّ ، وقرأ كتبها ومقالاتها ، وأعجب باثنتين فيها : أسلوبها المصقول وشرقيتها المتحمسة . والحديث الى رجل مثله — في إيمانه بما يعتقد ، ومصارحته بما يرى ، وفي متانة خلقه وتقديره للقيم الاخلاقية العالية — مما يحلو على الاذن ويطيب على القلب

وفي كل اشارة من اشاراته في معرض الحديث ، وفي كل كلمة من كلماته قوة كامنة . فهو محدّث قوي الايمان بما يقول ، شديد الثقة بما يذهب اليه . يمضي في الحديث أول ما يمضي على فطرة سمحة جميلة وطبيعة سهلة لينة ، لايُبهم عليه لفظ ، ولا يشكل عليه تعبير ، ولكنهُ قد يضطر أحياناً الى الوقوف وقفة قصيرة ليبحث عن كلمة مناسبة او لفظة موافقة او للعدول عن تعبير الى تعبير ، وهنا يرتفع صوته ويزداد قوة حتى لتحس ان كل جارحة من جوارحه تتكلم … وكان حديث الدكتور معي طويلاً لذيذاً ، قطعتهُ فترة طويلة لصلاة الجمعة . فاذا بنا ننتقل من مكتبه في دار الكتب الى مسجد جماعة الشبان المسلمين التي لها من جهاده نصيب . واذا بنا أمام الله في خشوع المؤمن ، واستسلام المسلم ، واذا الدكتور يجلس الى

ما بعد الصلاة في المسجد ليستمع الى كلمة سواء يقرؤها واعظ ديني

ثم تطول الكلمة ويطيل الواعظ وقد علق بعض المستمعين ، وقد ينصرف بعضهم وينتشرون في الأرض يبتغون من فضل الله ... الا منصور فهمي فهو باق وأذناه حتى يفرغ الواعظ من عظته وينتهي من كتبه فيتقدم اليه الدكتور ويحييه على حسن توفيقه .

ونعود بعد الصلاة لنستأنف الحديث عن « مي » في ركن منتحي من أركان القاهرة وهناك في ذلك الركن البعيد يفيض الحديث ، وينتقل من مسألة الى مسألة ، ومن سؤال الى سؤال ، ولكل سؤال عند الدكتور جواب ...

***

سبحان الله ! كلة سمعتها من صديقي الاستاذ احمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة الغراء وكنا ضيوفاً على الدكتور منصور بك في بيته الجميل بالريف في رهط من العلماء والأدباء . ونودي — بعد الغداء على مائدة كريمة سخية — لصلاة العصر ، فاذا الدكتور منصور يتوضأ ، واذا بنا نستعد جميعاً للوقوف في صفوف مستوية خلف أحد الشيوخ الاجلاء

***

وبعد الصلاة يلتفت اليّ أخي الاستاذ الزيات قائلاً « سبحان الله ! . منصور فهمي الذي أثارت رسالته في جامعة السوربون عن المرأة في الاسلام ثائرة الناس عليه ، يقف للصلاة ، ويحرص عليها في حينها فلا يجزيء عنده في الصلاة القضاء عن الأداء »

فأرد عليه قائلاً « ياسيدي ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء »

وفي الساعات الطويلة الممتعة التي قضيتها مع الدكتور منصور فهمي بك لنتحدث الى قرائه لنتكشف عن « مي » ذكرت كلة الزيات وقد تردد في أذني صداها فقلت : سبحان الله ! منصور فهمي الذي قضى في فرنسا بضع سنوات ، وشاهد الغرب ، وتعلم على أساتذة الغرب ، ودرس فلسفة الغرب ، وقرأ كثيراً من كتب الغرب ، يعود الى الشرق الروحاني السامي روحانياً سامياً ، ويؤمن بمثله العالية ، وقيمه العظيمة . ويرجع الى الشرق رجلاً محافظاً في تجديده ، مجدداً في محافظة ، فيتحدث عن شرقية « مي » وعن محافظتها ، وعن اعتزازها بشرقيتها فكأنما كان يتحدث عن نفسه ، وعن شرقيته ، وعن محافظته

***

كان حديث منصور بك فهمي صدى لأخلاقه القوية ، ورجعاً لروحه الشرقية المعتزة بكل ما في الشرق من مثل عالية ، وفضائل سامية ،

١ — سألته : (ما رأيكم في مي الكاتبة ، ومي الصحافية ومي المحاضرة ؟)

فقال : إني أعد الطريقة التي جرت عليها مي في كتابتها مما يصح أن يكون مثلاً للكتابة الراقية ، لأن مياً كانت تتوخى لما تكتبه بشتى الأفكار العالية ، والمعاني الشريفة التي خلعت لها من ثقافة عريضة واسعة ودراسة طويلة جادة ، ولم تكتف مي بالفكرة المتمكنة ، والمعنى الدقيق والرأي المتخول ، بل كانت تعنى فوق ذلك باختيار الألفاظ اللائقة ، والعبارات المؤاتية لتتساوق هذه الألفاظ المتآلفة المتجانسة في سلم موسيقية تتردد في أذن السامع أو القارىء رنيناً موقعاً ، ولحناً مؤتلفاً ، فلا يحس نبواً في لفظ ، أو حشرجة في تعبير

ولقد كان لهذا الأسلوب [illegible] المحتفل [illegible] المنمقة [illegible] جرس حسن في أذن السامع ، ووقع حسن في نفس القارىء وكثيراً ما كانت توفق مي في هذا السبيل

ولقد أعجبت بالآنسة محاضرة كما أعجبت بها كاتبة ، فقد كانت في ذلك المضمار مجلية ، ولا أعدو الحق إذا قلت أنها كانت محاضرة من أرقى طراز وأعلى غرار . ولعل أسباباً كثيرة اصطلحت على تفوقها في ذلك الميدان ، فقد كان لها من عذوبة صوتها ، وحسن أدائها ، وحلاوة إلقائها ووسامتها وحسن [illegible] معين على ذلك . وكانت تميزها حين تقف للخطابة في حفل أو المحاضرة في جمع ثقة بنفسها ، واعتداد بشخصيتها ، فما عرفت أنها هيبت منبراً ، أو خشيت موقفاً ، أو غشيتها سحابة من جبن أو جللتها غمامة من خوف ، بل كانت دائماً الواثقة الشجاعة

أما مي الصحافية فلا عهد لي بها ، ولم يتح لي أن أختبرها [illegible] الصحافة أو مبرزة في فن هذه الصناعة ، فإنا أعتقد أن الصحافة فن خاص له مقتضياته وأساليبه

٢ — فسألته : (هل تذكرون عن مي الطالبة [illegible] المصرية القديمة ما يصح أن يكون مثلاً للطالبة [illegible] المصرية [illegible] ؟)

فقال : أود لو كان عندي عن مي الطالبة بالجامعة [illegible] أقصه عليك ، فقد يسرني أن لو أتيح لي أن أكون أستاذها في ذلك الحين وأن تكون تلميذتي ، [illegible] كنت بعيداً عن الجامعة في ذلك الوقت (فقد كان [illegible] بالبعثة المصرية [illegible] بعد إتمام دراسته وانجاز رسالته لم يتصل بالجامعة مباشرة)

٣ — فسألته : (هل تعتقدون أن مياً نجحت في [illegible] رسالتها الأدبية ، وإذا كان ذلك فما هي أسباب نجاحها ؟)

فأجاب : أعتقد أن النجاح كتب لمي في أداء رسالتها الأدبية ، ذلك لأن مياً عاشت

في عصر تقدمت فيه النهضة النسائية من حيث فك القيود وكسر الأغلال التي تقيدت بها المرأة في هذا الماضي القريب . ومع أنها هي نفسها انطلقت من هذه القيود استجابةً لداعي التطور ووفقاً لحاجات العصر التي كانت لا بد أن تفكها من هذه الأغلال وتفكها من هذه القيود ، فإنها بالرغم من ذلك دعت بنات جنسها ألا يتعدين وراء هذه الحدود وألا يسرفن في الاندفاع والتهور ؛ فأرادتهن على ألا يبالغن في الكفاح السياسي ، كما أرادتهن على ألا يضيعن حق الانوثة ، أو يغفلن واجبات الأمومة

فكانت رسائلها في الحق دعوة مخلصة صريحة لأخواتها في الجنس، وزميلاتها في الأنوثة وكان سبيلها في الدعوة الكتابية ، فهي كفتاة كاتبة قد خصصت شباة قلمها لنشرة دعوة آمنت بها وحرصت عليها ودافعت عنها بإخلاص وصدق . فهي من هذه الناحية قد نجحت وأدّت رسالتها — كامرأة — في حسن بلاء ، وصدق نضال

ولعل ميّا نجحت في هذه الدعوة لأن المتربات من النساء ممن اوتين حظاً غير قليل من المعرفة، وأدركن ما كنّ يطمعن فيه من الثقافة والتحرر كنّ يرين ما رأت ميّ ، وينزعن في الاعتدال منزعها وينتهين الى ما ذهبت اليه من الحفاظ وعدم التفريط في خصائص المرأة أو التهاون في ميزاتها ويملن الى الاحتفاظ بسر أنوثتها وقدسية أمومتها

فضلاً عن أن « ميّا » الشرقية بلحمها ودمها ، والتي أدت الى أن تصل كتابتها الى الشرقيات، قد ساعدها في قبول ما كانت تؤمن به وتدعو اليه تلك الموروثات الشرقية الكامنة والوراثة القديمة التي لا أشك في أنها أصون لكرامة المرأة من النفوس، وأحفظ لمنزلتها من حيث السمو والكمال

(وهنا اشتدّ تحمس الدكتور [illegible] ذلك في صورة [illegible] كان يهدر كالسيل ، ثم تابع كلامه قائلاً) :

نحن نريد المرأة كما وصفها [illegible] القيس الشاعر الذي [illegible] في جمالها [illegible] المادية بقوله :

(وبيضة خدر لا يرام خباؤها)

نريد في المرأة معنى [illegible] بقوله :

(كأمثال اللؤلؤ المكنون)

نريد في المرأة معنى التحفظ لا معنى التبذل ، حتى يصح معنى التقصر في قوله تعالى :

(حورٌ مقصوراتٌ في الخيام)

ولعل من أسباب نجاح دعوة مي استعداد الشرق الوراثي ، والاستعداد الطبيعي في غريزة المرأة — هذا الاستعداد الذي [illegible] تمسكها بما آتاها الله من رقة ، وحياء

من حنو ، وأودع فيها من ضعف هو القوة بعينها . . . لقد سلّح الله المرأة بسلاح يشبه الضعف وهو قادر أن يكون ضعفاً . وفي قوته من الرقة والنعمة واللطف والأنوثة والجمال والنزعة المقدسة ما يجعل للمرأة مكاناً قدسيًّا ، وعلاًّ فيه من جلالة التقديس ، وطهارة التنزيه ما ينبغي أن يحول بينها وبين الامتهان والابتذال . المرأة أم الأبناء ، ومستودع الذراري فلا ينبغي العبث بحرمتها . المرأة في مكان السمو ، ومنزلة العلو ، جعلها الله موضع إرادته ، وسر مشيئته في تنمية الوجود ، وحفظ النسل ، واستمرار النوع ، فهل يليق بعد ذلك أن تمس حرمتها ، أو تمتهن قداستها ؟

٤ — وسألته : وما هي أجمل النواحي الأخلاقية التي كانت تعجبكم من مي ؟

فقال : لقد كانت نواحي مي كلها جميلة معجبة ، فلا أدري أيها أذكر وأيها أدع . كان فيها لطف وكياسة ، وكانت مصقولة الطباع ، رقيقة الحاشية ، حتى لتكاد تفيض رقة . وأخص ما يعجبني منها نزعتان : الأولى أنها كانت متحمسة لكل ناحية من نواحي الاحسان ، فكانت أحسن الله إليها — على فقرها وقلة مواردها تتحمس للمعروف ، وتتسابق إلى الاحسان ومما أذكره لها أنها كانت في كل حفل من محافل الاحسان تشترك بما تستطيع من مال أو مقال ولو قد آتاها الله بسطة في المال وسعة في الرزق وبرفرة في الغنى لكان لها في عالم الخيرات والاحسان شأن يشار إليه بالبنان

والنزعة الثانية هي نزعتها الروحية الدينية الراقية ، فما كنت أعرف عنها استهانة بما في الأديان من سمو وجمال ، أو بما في الروحانيات من سمو وجلال

٥ — وسألته : [illegible] يتحدثون عن تعثر [illegible] مي بشرقيتها واعتدادها وفخرها بهذه الشرقية [illegible] برغم ما أتيح لها من ثقافة غربية ومعارف أوربية فهل عند عزتكم من ذلك [illegible] ؟

فأجاب — كسبت مي من الغرب طرائق البحث وطرائق الاتجاه ، أما المثل الشرقية العليا فقد وجدت في فيها كفايتها وحاجتها وشفاء ما في نفسها من تشوق إلى المثل الرفيع ، والمثال الكامل . وقد ذهبت إلى أن مثل الغرب الدنيا على ما فيها من خير — تكاد تكون محصورة في نتائج مادية [illegible] أن [illegible] المثل الغربية [illegible] فيها من تغلب المادة وتحكم الآلة

لا ينكر وجه الخير فيها . اما المثل الشرقية فهي مثل انسانية روحية سامية

هي مثل الحب والفناء فيه

هي مثل النخوة الى الخير والاستمرار فيها

هي مثل الروح تسمو عن مخاسف المادة . وتتعالى عن ضوضاء الاجسام

هذه المثل السامية وجدت من قلب ميّ الفتاة الشرقية استجابة أكثر من استجابتها الى صلصلة الماديات وجرس الآليات

ولذلك هامت ميّ بالشرق ، ونادت بالروح الشرقية . ونبهت الراقدين أو السابحين في الاوهام الى الاستجابة لهذه الدعوة .

وكانت دعواتها وصيحاتها تتردد في كتاباتها عن الشرق . ولقد اعترفت ميّ بضعفه المادي وفقره ، وانقطاعه عن المظاهر السائدة الخلابة التي تظهر بها المدنية الغربية في ثوب موشّى مزركش ، ولكنها مع اعترافها بهذا النقص في الشرق ، وتسليمها بالإقفار السائد في مظاهره البادي في نواحيه فقد وجدت أن وثباته الروحية وتطلعه الى معاني الخير ومعاني الرحمة ومعاني الايثار . أن نزوعه الى السمو الروحاني هو أسمى بكثير من نزوع الغرب الى معاني القوة ومظاهر المادة

ونحن هنا يتساوق معنا طبيعة الانوثة الرحيمة ، طبيعة المرأة الرقيقة ، والانسانية البارة الخيّرة التي تمثلت في مي بشراً سويّا

واذا كنا لا ننكر على ميّ ثقافتها الغربية ، ولا ننكر عليها استفادتها منها من حيث الطريقة والاتجاهات ، فإننا لا ننكر عليها أيضاً حقها — كامرأة وكشرقية — أن تهيم بالشرق الذي [illegible]

[illegible] أوحت [illegible] الرسالات الى الانسانية ، وأنضجت تفتّح الحياة وميول الوحي والنبوءات [illegible] لأنك [illegible] — أيها الشرق — لتكون الوطن الاول للعبقريات الاولى وللابتكار والنبوغ

... [illegible] أيها الشرق [illegible] الاقوياء [illegible] تقوسهم في تأليه الغلبة ؛ [illegible] في الظلام ، الى متى تنتظر الفجر الذي سيسطع ؟

... أنت ربيع الضياء ، أيها الشرق !

أنت [illegible] صحة الحياة [illegible]

في كانت [illegible] الشرقي [illegible] مثله وتأثر بطرائق الغرب من غير اندفاع في تياراته ومن غير اغفال [illegible] وهذه أكبر دليل على أنها لم تكن مقلدة تقليداً أعمى

فقد عرفت كيف تستفيد من الغرب من غير أن تهمل الروح الشرقية

٦ — قلت له : (ما هي أجمل ذكرياتكم عن مي ، وما آخر رؤيتكم لها وعهدكم بها ؟)

فأجابني : لعل أبقى آثارمي في نفسي أنها كانت تحدثني عن بعض خطراتي حديث الفاهم لها المدرك مراميها ومغازيها . وكانت تصارحني باعجابها بتلك الخطرات ، وكانت هذه المصارحة بالاعجاب تتكرر كلما لقيتها ، مما دلني على ذوقها الفني واتجاهها الفكري . وكنت أرتاح الى ما تبديه من اعجاب ، لا فقرأ بالثناء أو طرباً للاطراء ، ولكن لشيء أسمى من ذلك قيمة وأبعد مرمى ، لأن هذا الاعجاب الذي كنت أرى فيه صدقه واخلاصه وبعده عن زخرف القول وزور الرياء كان يدل على الأقل على أننا توافقنا في المعاني التي نكتب فيها والمذاهب التي نذهب اليها

لقد كانت مي صادقة في ثنائها على أسلوبي وكتابتي ، وكنت أعرف فيها هذا الصدق وأتبينه ، وأحسه في كل كلمة تقولها لي ، او عبارة تكتبها الي ، فقد كتبت الي عما ينم على هذا في إحدى رسائلها الخاصة

وآخر ذكرياتي عنها أنها زارتني في دار الكتب بعد عودتها الأخيرة من لبنان وكان في صحبتها أميرة لبنانية فاضلة وأخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وذهبنا في القول مذاهب شتى الى أن جر الحديث — وهو ذو شجون — الى شعوري في فقد ولدي (وهنا بدا التأثر على محدثنا الفاضل بارك الله في البقية الصالحة من اولاده وأقر بهم عينه) . وكنت أشعر في عرض الحديث أن ميا كانت تشاطرني مخلصة هذا الاحساس العميق . فكأنها كانت أرسلتها الاقدار في هذه الساعة لتخفف الوجد الذي أجد حينما أثيرت ذكرى ولدي

ثم أخذت تنحو في كلامها اتجاهات هي الى الفلسفة أدنى منها الى العاطفة،وهي الى الحيرة في فهم أحكام القضاء والقدر أقرب منها الى التسليم بالواقع المحتوم ، والقضاء المبرم

وكانت مي في الشام في عزلة قاسية، ووحدة مضنية بعد أن اصطلحت عليها الآلام والأحزان وحالفتها الوساوس والأوهام — مما يعرف القراء الأفاضل نبأه في حينه — وكنت أنا أزور الشام في ذلك الحين ، فرغبت في لقائها ، ولكنها كانت في عزلتها لا تلقى احداً ، ولا تقابل انساناً

وحدثني أمين الريحاني بعض الحديث عنها ، وأخبرني انها كانت قريبة منه في أمريكا

وأود هنا وأنا في معرض الحديث عن ذكرى مي أن أقرن ذكراها في عزلتها بلقائي لامين الريحاني الذي ترك في نفسي أثراً طيباً

ولقد مات الريحاني وسار الى النهاية التي يصير اليها كل حي ، وحُمل على الآلة الحدباء التي يُحمل عليها كل ابن انثى وإن طالت سلامته ... وماتت بعده مي كما تموت الزهرة بعد ما كانت متفتحة بالامل ، فوّاحة بالشذى ، مخضلة بالطلّ الندي

ولو عاش الريحاني بعد مي ، وقدر له ان تتأخر خطواته الى الابدية بعد خطواتها فلعله كان أولى الناس بالحديث عنها ، وأجدرهم بأن يقص على الادباء سيرة من جهاد مي وكفاحها في سبيل تحقيق مثلها العالية

أنت تسألني عن أحلى ذكرياتي عن ميّ ولم تسألني عن أحزن ذكرياتي عنها كأنك تناسيت ما تثيره الذكريات الحزينة في نفوسنا من لذاذة الذكرى . لقد كنت في لبنان ضيفاً على امين الريحاني ساعة من الزمان كنت أنا وزوجي وابني فيها في بيته وضيافته ، وحدثنا الريحاني عن مشاهداته ورحلاته ، وحدثنا عن ذكرياته في بلاد العرب وحدثنا عن ميّ وعزلتها واستيحاشها ، فكانت ساعة امتزجت فيها أحلى المحادثات بأحزن الذكريات ...

٧ — فسألته : (أي نوع من الكتب كانت ميّ تقرأ ، والى أي حد بلغ شغفها بالمطالعة ؟)

فأجاب . لعل ميًّا نفسها أجابت عن الشق الأول من سؤالك في مقدمة الكتاب الذي ترجمته باسم (ابتسامات ودموع) . فقد اشارت في المقدمة الى النوع من الكتب الذي تحبه وتحمده بالايثار . أما شغفها بالمطالعة فقد كان كثيراً لاحد له ، ولعل هذا هو السر في اتساع آفاق تفكيرها ، واتصاح المدى امامها . وكانت شهوة المطالعة عندها لا تقف عند حد ولا تنتهي الى غاية ، ولهذا درست كثيراً من اللغات الاجنبية وتمكنت منها وكانت تلتهم الكتب كما يلتهم الجائع لقمة من الزاد ، أو كما يزدرد الجائع كسرة من الخبز ، وكان لها مكتبة خاصة تستغني بها عن الرجوع اليها أكثر من رجوعها الى المكتبات العامة

وكانت مي تعتز بمكتبتها الخاصة اعتزازاً كبيراً ، وتعتني بها عناية كثيرة ، وتزودها كل يوم — حتى حسب ما يزودها — بما يظهر من كتب ، ويجد من تأليف . ولا أعلم مصير هذه المكتبة بعدئذ

٨ — فسألته : (عرفتم ندوة مي أو صالونها الادبي ، ألا ترون ان يكون مثلاً

للأندية الخاصة بدلاً من تلك التي يكثر فيها الكلام واللغو والتأثيم ، ويشيع فيها القيل والقال ؟)

فأجاب : لاشك ان منتدى مي أو « صالونها » كان حافلاً بنواحٍ ادبية ، وممثلاً نفثات من العلم وألوان من الثقافة ، ولكني كنت أتمنى ان يكون هناك أندية « صالونات » نسائية بحتة ، يشيع فيها الأدب والتفكير الراقي على ما ينبغي ان يكون بين التأدبات المثقفات من الآنسات والسيدات ، والبنات والأمهات ، كما تكون هناك اندية ادبية بحتة تجمع بين الشيوخ والشيوخ أو بين الشباب والشباب ، او بين الشيوخ والشباب ويشيع فيها كذلك الأدب الراقي الرفيع من غير حاجة الى كثرة الاختلاط . اما اذا اقتضى الأمر الاختلاط فليكن بمقتضياته وظروفه ومكملاته بحيث لا يندس في هذا الاختلاط من لا حصانة تعصمه من كل ما يخل بآداب الاختلاط الراقي ، ليس بالنسبة الى الآداب الظاهرة فقط ، بل في الدقائق الخفية ، وفيما يبدو عليه من القول والاشارة والعبارة ، وفيما يخطر على خفايا النفس من التصورات الآثمة والمضمرات السيئة

ولقد كان منتدى مي راقياً لأنها كانت راقية بأخلاقها ، سامية شريفة في افكارها ، وليست كل فتاة او سيدة قديرة على ان تشيع في ناديها الخاص — لو كان لها ندي — ما كانت تشيعه مي في منتداها من أدب ومحافظة . ولعلي لا أعدو الصواب إذا قلت انه في العصر الحديث وجلت منتديات نسائية سبقت منتدى مي ، حتى ان بعض الأميرات المصريات من البيت المالك وهي الأميرة « نازلي » كان يغشى مجلسها أمثال قاسم امين وسعد زغلول والشيخ محمد عبده

ولعل مجلسها كان يشيع فيه الأدب الراقي ، وتتناول فيه المسائل الاجتماعية العالية ، وتدار فيه الأحاديث الرفيعة في ألوان من الأدب ، وأنواع من البحث . فليست مي هي البادئة بهذا في العصر الحديث وقد سبقتها الى هذا فيما نعلم اميرة مصرية فضلى . وقد يكون هناك بعض السيدات الفضليات ممن سبقن مياً الى انشاء هذه الأندية الأدبية ، ولعل مياً اشتهرت « بصالونها » لأن بابه كان أوسع ، وأنا ممن يميلون الى تضييق هذا الباب

ولم ينفرد نساء العصر الحديث بهذا ، فقد سبقتهن السيدة الجليلة سكينة بنت الحسين ابن علي ، وكانت — كما يروي صاحب وفيات الأعيان — سيدة نساء عصرها ومن أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن اخلاقاً . وكانت لها نوادر مع الشعراء ومساجلات مع الأدباء ورد ذكرها في بعض كتب التاريخ والأدب

حضرة الاستاذ

ابراهيم عبد القادر المازني

لم أرَ في حياتي (المازني) قبل اليوم الا مرة واحدة، وكان ذلك من عهد غير قريب، أيام كانت (السياسة الاسبوعية) في أول عهدها

ولكنني رأيت بعد ذلك (المازني) مرات يخطئها الحصر ويفوتها العد في كتبه ومقالاته وقصصه

ولقد عرّفني الى (المازني) — ولا أعني التعريف بالاجسام وما يصحبه من التقاء العين، ووقوع العين على العين، ومصافحة الأيدي بالسلام، وانما أعني التعريف بأدب المازني وأسلوب المازني ومكانة المازني بين الأدباء — عرّفني بذلك استاذي الجليل المرحوم الشيخ احمد الاسكندري، وكان كثيراً ما يستعرض في دروس الأدب بدار العلوم المعاصرين من الأدباء والشعراء والكتّاب — حتى السياسيين منهم — وكانت له فيهم آراء ونظرات

***

وكان الاسكندري كثير التحدث عن (المازني) وخاصة عن نصاعة أسلوبه العربي مع بعده عن التكلف، ودقة تصويره لدقائق الامور وصغائر الاشياء مما لا يتاح لكثير من الكتّاب. وشهادة استاذ جليل كالمرحوم الشيخ الاسكندري المتمكن من اللغة العربية، الواقف على كثير من أسرارها وخصائصها، وفقهها وأساليبها لها قيمتها وأثرها. ولم يكن الشيخ ممن يعجبون أدنى اعجاب بالمذاهب الافرنجية في الكتابة او ممن ينزعون الى منازع الركاكة باسم التجديد، والله يعلم انهم حسبوا قديمهم طريق لهم جديد

والمازني كان معلماً قبل أن يتخذ الكتابة صناعة له، ولعله كان مدرساً موفقاً كما وفقه الله في أدبه. وقد ذكر العقاد في مقال قريب له (بالرسالة) أن المازني (كان مسيطراً على التلاميذ، فقلما يحتاج الى معاقبة أحد منهم لخروجه على نظام الحصة؛ لانه كان مهوباً بينهم قديراً على أخذهم بمهابتهم اياه قبل خوفهم من عقابه)

والحق ان المازني على صغر جسمه كبير في قلبه، مهوب في طلعته، وله في الالقاء والحديث طريقة جذابة، فهو يسري سامعه بمتابعته وينتقل به من معرض الى معرض في أبانة واطالة، فاذا أوجز ود جليسه أنه لم يوجز ...

وكان المازني يقول الشعر ، وكان كبيراً في مجاله وميدانه ، وله فيه مذهب معروف ، وله في الشعراء رأي خاص ، ولكنه هجر هذه الروضة الجميلة التي تسعد النفس في أحزانها ، وانصرف الى الكتابة والى السياسة ، وشغلته دنيا الناس عن دنيا الشعراء . .

والعقاد والمازني اسمان متلازمان يستدعي ذكر أحدهما ذكر الآخر ، ولعل لاشتراكهما القديم في نقد بعض الشعر الحديث أثراً في ذلك . ومن الغريب أن يذكرهما الدكتور تشارلز آدمس في كتابه على التوالي متلازمين حين يعرض للكلام على تأثير الشيخ محمد عبده فيهما

كانت فرصة الحديث مع الاستاذ المازني من أسعد الفرص التي ظفرت بها في الحديث عن (مي) الى قراء المقتطف . ولقد تشعب الحديث ألواناً وفنوناً وأخذ كل مأخذ ، وتخللته لحظات طوال أو قصار — كان يستعرض فيها الاستاذ بعض ماضيه ، ويقص بعض ذكرياته في صباه وشبابه : (وفي الطريق) وفي مدرسته ، وفي الحظ الذي كان دائماً معه على شقاق . .

والمازني يبدو في كتابته ، كما يبدو في أحاديثه شديد الحنين الى الماضي ، فهو وفيّ له في أي مظهر كان ، نزّاع اليه ولكن هيهات أن يعود :

فليت عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

***

١ — سألته : كيف عرفتم ميّا ، وما هي ذكرياتكم التي تحفظونها عن أول لقاء ؟)

فأجاب : لا أذكر متى عرفت فقيدتنا العزيزة ميّا او كيف عرفتها فما بقي في ذاكرتي من ذلك الا صورته . وأكبر ظني أني عرفتها بعد ان أصدرت مع صديقي الاستاذ العقاد كتاب « الديوان » في النقد . على أني لست واثقاً ولعلي عرفتها بعد صدور كتابي « حصاد الهشيم » . ولكن ما أذكره — لأنه صورة وذاكرتي « فوتوغرافية » — هو أني تلقيت منها ذات يوم بطاقة مكتوبة بخط جميل تدعوني فيها الى زيارتها في يوم ثلاثاء . أما أي ثلاثاء ومن أي شهر او سنة فعلمه عند الله . وقد استوقفت بطاقتها حسن الخط وتوهمت أنها استكتبت أحد الخطاطين وعددت هذا من التكلف الذي لا داعي له . وما كنت أمقت التكلف وأنفر من الاجتماعات الكبيرة فقد زهدت في الزيارة التي دعتني اليها ووطنت نفسي على التخلف . ومن حسن الحظ أني نسيت ان أبعث اليها برد او اعتذار . وأحسب ان الاستاذ العقاد هو الذي هوّن عليّ الأمر وشجعني على قبول الدعوة وعرّفني ان هذا خطها لا خط خطاط فلم أجد مناصاً بعد ذلك من تلبية الدعوة الكريمة

وأقول « المكروعة » لأني كنت سيء الأدب معها أو على الأصح قليل الذوق . ذلك أنها كانت أهدت اليّ كتابيها (المحاضرات) و (ظلمات وأشعة) فلبثت نفسي تأمرني بأن أبعث لها برسالة أعرب فيها عن حسن الرأي فيهما ولعلّ كلمة (الظلمات) هي التي ساء وقعها في نفسي فكتبت بضعة فصول في الاخبار — نشرت بعد ذلك في (حصاد الهشيم) عن (الواجب) و (الكتب والخلود) و (الطبيعة عند القدماء والمحدثين) ولم أتناول الكتابين بأي بحث وانما كتبت ما كتبت لمناسبة اهدائهما اليّ وكانت هذه قلة ذوق على التحقيق . وكان اهمال ابداء الرأي لا يخلو من معنى الاستخفاف فبأي وجه ألقاها وقد صنعت ذلك . . ولكنها غفرت ذنبي وأغضت عن قلة ذوقي وعسى ان تكون قد حملت ذلك مني على محمل الغرور او الطيش او الحماقة التي يركب الشاب بها الحياة ولولا أنها صفحت عني لما دعتني . فني الاقرار بالذنب والاعتراف بالخطأ وبما ينطوي على معنى الاعتذار ان ألبي الدعوة . وحدثتني نفسي وقد دارت فيها هذه المعاني انها لابد ان تكون مرهفة الاحساس عظيمة مروءة القلب رحيبة الأفق وانها على كل حال لابدّ ان تكون ظريفة فتوكلت على الله وذهبت

وأعترف أني دخلت متهيباً مستحيياً ووقفت على الباب متردداً — متهيباً لقاءها ، مستحيياً ان أحشر نفسي بين زوّارها الذين قيل لي أنهم من كل طبقة ، ومتردداً لأني لم أتعود هذه المجالس ولأني أعرف من نفسي شدة النفور من هذه الطبقات التي تعد نفسها ممتازة او طالبة او لأأدري ماذا أيضاً . على أني دخلت بسلام فاستقبلتني هاشة باشة (شاكرة) فتعجبت ولا أظن أني نطقت بحرف وقعدت حيث أومأت . وكان هناك الاساتذة — ومعذرة اذا لم أذكر الألقاب — لطفي السيد وخليل مطران ومصطفى عبد الرازق والمرحوم السيد رشيد رضا وابن أخيه محيي الدين رضا والاستاذ العقاد وآخرون كثيرون امتلأت بهم حجرات الدار وكانت الرحومة أمها تساعدها على الترحيب بالضيوف واكرامهم ولا أذكر ما دار بيني وبينها حديث ، وكانت كلما مرت بي تلقي لي كلمة تحية أو تكتفي بالابتسام وأنا كالأخرس لا أنبس ببنت شفة . واذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات الى الردهة الفسيحة واذا بها تقف تتحدث [illegible] ووجدت نفسي [illegible] شيئاً [illegible] لمخاطب [illegible] شيئاً [illegible] ثم [illegible] فانطلق لطفي السيد بانما يصفق فتعجبت لهذا الرجل وما عددته يومئذ اسرافاً في التلطف والمجاملة ولم اصغ لشيء مما قالت ورأيت كثيرين ينهضون ذاكرين مثنين وصار هذا يصعب ذلك لالقاء كلمة تحفت وزادني رعباً ان السيد محيي الدين رضا همس في أذني انه سيدعوني الى الكلام فقلت والله لئن فعلت لأقولنّ ما يسوءه فأنا من رهبان الوحدة ولست أحسن هذا الضرب من الكلام وما جئنا هنا لثني بعضنا على بعض وعلى أني لا أعرف لماذا جئنا أو دعينا . .

واتفق في هذه اللحظة ان مرت بي الآنسة مي فحاولت ان أنهض لها فنهتني عن ذلك وعرفتني انه غير لازم فوجدت لساني وقلت لها معتذراً من جهلي أني من عامة ابناء الشعب ولست من رواد الصالونات فأرجو ان تتجاوزي عن اغلاطي. فقالت بابتسامة وديعة: — لا تقل هذا الكلام . قلت : ألا تحبين ان تعرفيني على حقيقتي . قالت : طبعاً . قلت : تقي اذن أني من ابناء الشعب ولا أستطيع — ولا أحب — ان ارتقي عن هذه المنزلة فتبسمت وهزت رأسها . ولا أدري الى هذه الساعة أكان هذا منها أسفاً أم رفضاً للتصديق وانما الذي أدريه اني كنت بادياً جداً

وبدأ الناس ينصرفون وهمَّ الاستاذ العقاد وهممت بالخروج فأخرتنا واستبقتنا — يحفظه الله بل استبقت ايضاً الاستاذ خليل مطران — وجلسنا نحن الاربعة في حجرة الاستقبال الكبرى وكان نصيبي منه الاصغاء مطرقاً حيناً وناظراً اليها حيناً آخر ومعجباً بها في الحالين وان كنت قد شعرت اني غير فاهم شيئاً مما يقال لفرط اشتغالي عما في نفسي

وحاورت نفسي في تلك الليلة ورحت افكر فيما رأيت وسمعت فأعجبني من الآنسة مي ان احتفالها برجال الادب كان أبين من احتفالها بغيرهم وسرني على الخصوص رقتها وتلطفها حين أخرتنا واستبقتنا كأنما كان همها كله هو ان تجالسنا نحن لاسوانا . وتذكرت ما كس نورداو وتصعيق له السيد الذي أسخطني فراجعت نفسي في سخطي عليه ورجعت ما كس نورداو فاذا السخرة التي استهلت بها كلامها منه معناها ان الاعتراف بالجميل ينطوي على الامل في دوام هذا الخير ولو انقطع الامل لكان الارجح ان لا يكون شكر او اعتراف بمعروف فهي اي الآنسة مي تشكر الذين لبوا دعوتها شكراً فيه معنى الامل في مواظبتهم على الحضور . وكانت هذه براعة منها ولم يكن تصفيق تطي السيد الذي في غير محله . ولقد كنت خليقاً أن أصفق معه لو انه كانت لي مثل فطنته او على الاقل لو كنت ساعتئذ معنياً بالاصغاء

ولا أدري هل عدت بعد ذلك الى زيارتها ام لم أعد فان كنت عدت فقد كان ذلك ولا شك بدافع من الاعجاب والاكبار وان كنت كففت فلعله لا بد ان تكون تعوزني مما يسمى ... «الجرأة» ...

٢ — فقلت : « هل تعرفون شيئاً عن رسائل « مي » والمكاتبات التي دارت بينها وبين الشعراء والادباء » وما رأيكم في نشر الرسائل العامة منها التي تتعلق برأي في الادب ، او فكرة في الحياة ، او نقد لمذهب ، او تعليق على كتاب ؟ »

فقال: أعرف ان كثيرين من الادباء كاتبوا ميًّا وكتبت اليهم والذي يعرف ميًّا لا يرى أما من نشر رسائلها الى أصدقائها فانا أحسبها اشتملت على غير آرائها في الحياة والأدب والكتب وما الى ذلك ويصعب جدًّا ان أصدق — الاَّ اذا قام الدليل على غير ذلك — ان ميًّا كانت تتناول في رسائلها أموراً شخصية. على اني ممن لا يرون نشر الرسائل الخاصة ولو كانت بحثاً صرفاً، وليست مي بيننا حتى يمكن ان تستأذن في النشر، ولا أرى من حق أحد أن ينحل نفسه هذا الحق

ويمكن ان اقول اني لا أخشى ان يكون في رسائل ميّ او رسائل احد اليها ما يغض من حسن الرأي او الاعتقاد فيها. والارجح عندي ان نشرها يعزز مقامها ولكني مع هذا لا أوافق على النشر لان هذا جانب من حياتها الخاصة ولا شأن للجمهور بها

٣ — فقلت: سألتني سيدة أديبة كبيرة عن رأيي أنا في كتب مي، وهل سيكتب لها كلها او لبعضها الخلود؟ فلم أبد لها رأياً خاصاً ورأيت ان أحيل السؤال بصورتي عليكم؟

فقال: حولتم عليَّ سؤالاً ألقته عليكم سيدة اديبة كبيرة عن كتب مي وهل سيكتب لها الخلود. والجواب — أي جواب — لا يخلو من اجتراء على الغيب. على اني أقول اني أومن بالفناء في الدنيا ولا أومن بالخلود لشيء فيها، فلا الادب ولا غيره يبقى ولا الحياة نفسها ولا الكرة الارضية كلها، وتصور يا سيدي ان كل جيل من كل أمة في كل عصر يخرج طائفة غير قليلة من الكتاب والادباء والشعراء. وكم عدد من يظهرون في الامم جميعاً في العصر الواحد.. مثلاً.. وكم عدد من يذكر العالم في حاضره من عشرات الآلاف الذين سبقونا... وسيصبح عشرات الآلاف ملايين على الادهار. نعم ربما بقيت الكتب محفوظة في دورها فيكون البقاء معناه الدفن.. لا يا سيدي

وأنا أعتقد ايضاً ان العالم سيستغني عن الألفاظ واتصالات الشخص البعيد كأداة للفهم والافهام وسيستطيع بعد مرور أحقاب كافية ان يتخاطب ويتراسل ويتفاهم بموجات يرسلها كما يرسل الآن موجات لاسلكية يذيعها في ارجاء الارض فيسمع النائي والداني. وحينئذ يستغني العالم عن الأدب المكتوب كله

٤ — فسألته: أترون لو ان ميَّ عاشت حياتها كلها في لبنان دون مصر أكانت

تبلغ في ذرى جباله، وتحت ظلال أرزه ما بلغته في مصر من مرتبة أدبية على شاطئ نيلها وتحت ظلال أهرامها؟)

فأجابني: تسألوني هل لو كانت ميّ قد عاشت في لبنان دون مصر أكانت تبلغ ما بلغت من مرتبة ممتازة في عالم الادب والجواب نعم ولا، فأما نعم فلأن ادب ميّ تأثر بتيارين على الخصوص. الأول التيار الذي أوجده اليازجي وزملاؤه وعلى هذه الطبقة تأدبت ميّ على الخصوص وبهم تأثرت من الناحية العربية واليهم يرجع الفضل في سلامة أسلوبها وتأنقه وهذه الطبقة كلها او معظمها من اللبنانيين. وأما الثاني فهو تيارات الادب الغربي ... على درسه باللغات المختلفة التي كانت تتقنها وتقرأ وتكتب بها، وترون من هذا انه كان يمكن ان تحيا في لبنان او في مصر. ولكن شهرتها — لو كانت قد بقيت في لبنان — كانت خليقة أن تكون أقل وفي نطاق أضيق. ويلاحظ في تاريخ الادب العربي القديم ان كل من اتصل بمصر في حياته كان نصيبه من الشهرة أوفر. لا أدري لماذا. ولكني ارى ان هذا هو الواقع ولو اتسع المقام للافاضة في البيان لفعلت وهو على كل حال باب من القول لا يغني فيه الاجمال فيحسن الاكتفاء بما أسلفت

٥ — فسألته: (ما رأيكم في أسلوب مي وفي طريقتها التي اتخذتها للتعبير عن آرائها وأفكارها؟)

فأجاب: أما أسلوب مي فسليم نقي، وقد اشرت الى ذلك عقب لما تلقيت كتابها ذلك أني أكره الاسلوب العاطفي أو الوجداني وقد نسيت وأنا اقرأ كتابها أن الكاتبة امرأة ومها لا تكون مخلصة لنفسها وطبيعتها الا اذا كتبت بروح المرأة وأنها بغير ذلك تبرز متكلفة ولا قيمة لها. وقد كانت مي امرأة صادقة الانوثة غير متنكرة لها وغير مخلصة لجنسها وطبيعته أعظم اخلاص وأحسب أني قد بينت كيف كنت قليل العقل

٦ — فسألته: (ما رأيكم في منزلة ميّ بين كتاب العربية؟)

فأجاب: — الجواب عن سؤالك هذا سؤال مثله: هو أين في العربية من النساء من يضارعها حتى يكون هناك محل للمفاضلة؟

حضرة الاستاذ

خليل مطران بك

خليل بك محدّث من الطراز الاول ، ان طال لم يملّه سامعه ، وان أوجز ودّ المحدث اليه لو انهُ لم يوجز . وهو شاعر في نثره ، كما هو الشاعر في شعره . فاللفظ متخير عذب ، والكلمة منتخبة رشيقة ، والبيان منفصّل والمعنى مقسّم . وفي القائه حسن يزيد من حسن بيانه وفصاحة لسانه . فكأن حديثه — على عمومه — ضربٌ من الشعر او لونٌ من السحر

ولقد عرف خليل مطران « ميًّا » كما سيجيء في عرض حديثه ، فدامت المعرفة . واستحكمت الصلة ، واستوثق الود أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، في زمان وهنت فيه الخلائق وتراخت فيه العهود والمواثيق فكان « خليل » الخليل الصافي ، والرفيق الوافي كما هي شيمته مع كل من عرفوه ، وسجيته مع كل من اتصلوا بأسبابه

ولقد وقفت « مي » منذ أكثر من ربع قرن — وكان ذلك بالضبط في سنة ١٩١٣ — في جمع حافل من الادباء والعلماء ، والكبراء والعظماء تكرم « خليل مطران » بمناسبة الانعام عليه بوسام خديوي ، كما ألقت في ذلك الحفل كلمة بعث بها « جبران خليل جبران » فكان ذلك أول عهدها بالمواقف ، ومفتتح أمرها في المجامع والمحافل . فأحسنت الالقاء ، وكان صوتها كما قال الدكتور طه حسين بك عذباً لا يكاد يبلغ الأذن حتى يصل الى القلب

بعد ذلك العهد البعيد وقف مطران يدفع ثمن ما أسدت اليه مي من الجميل . قلت له

(أسألكم بوجه عام عن ميّ من حيث شاعريتها ورأيها في الشعر)

فأجاب بهذا الجواب المستفيض : لا بأس قبل الحديث عن ميّ ان أشير الى أول معرفتي بها فقد جاءني بزيارة من الأيام الشيخ يوسف الخازن وكان صاحب جريدة الاخبار بمصر ، وناولني ديواناً من الشعر مكتوباً عليه اسم المؤلفة (إيزيس كوبيا) . ولم يكن هذا الاسم الا ترجمة او مقابلاً لاسم (ماري زيادة) وطلب مني بعد اتمام قراءته ان أكتب عنهُ كلمة في جريدته ، على نحو ما يصنع بكل كتاب جديد لتقديمه الى القراء

قرأت الديوان فوجدته مكتوباً باللغة الفرنسية بعبارة سليمة تنم على دراسة متقنة دقيقة ومعرفة صحيحة بهذه اللغة

والبداهة كل ما بقي الى الآن في ذهني من أثر هذه الكتابة وبعثت به الى جريدة الاخبار في ذلك الوقت ، كان مؤداه أني بعد مطالعة هذا الكتاب تمثل لدي قفص من الذهب يتحرك في داخله ويتنقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملون الريش ، مرح كل المرح كأنهُ يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبي ليفلت من قيود أسلاكه وينطلق منه الى الفضاء الواسع والجو المطلق الفسيح لأنهُ لا يطيق الاحتباس ولا يقدر على ان يكون سجيناً في مكان ضائق بأمانيه في الحياة . وتبين — لما عرفت ميًّا بعد ذلك — ان العصفور الصغير لما بدأ الحياة خارج المدارس وأقبل على مغامرات تكشفت أمامه وسائل النجاح القريب ، ورأى آفاقاً بعيدة للآمال ما كان ليحجم عن التوجه اليها بكل قواه : فأخذت مي تقرأ الادب العربي وتتعلمهُ ، ورأت ان مجالها يكون أفسح حين تكتب بلغة قومها ، وان ميدانها يكون أرحب وأوسع حين تعبر بلسان أهلها ، ورأت كذلك ان تموّقها المنشود لا يتخذ له ذريعة أقوى من أن يستند الى شعورها الشرقي ، والطبع الأصيل الذي أخذته من منبتها

وكانت فطرتها تعينها على المجهود المطرد القوي . فما لبثت ان تضلعت من اللغة العربية تضلع الذين قضوا وقتاً طويلاً في مدارستها . وهنا انتقلت فيها الشاعرية من الطريقة التي كانت قد بدأت بها في ديوانها الاول — طريقة العروض والروي — الى طريقة البيان الآخذ بين النظم والنثر مما له خصيصة في اللغة العربية . ولك ان تقول ان شاعريتها في اللغة العربية كتبت بطريق النثر الفني وهذا هو ما اختصت به في اسلوب كتابتها الى ان باتت فتكتب مصورة وملحنة ، ومقسمة للكلام على تقاسيم شعر خفي تتحرك به النفس

واتفق بجانب هذا انها كانت قد أوتيت فيما أوتيت من مواهب قوة الفصاحة اللسانية والتعبير العجيب برنات الصوت واشارات النظر والايدي . فلم تلبث ان ظهرت بمظهر الخطيبة التي لا تجارى وهي تلقي كلامها من فوق أعواد المنابر . ولقد يبلغ بك الظن وأنت تسمعها تخطب انه لو ان ممثلة من كبريات الممثلات أخذت كلامها وألقته لا يكون عندها من ابراز المعاني ما عند مي بهذه السهولة وذلك اليسر . فلا نمس انها كانت لها هذه المقدرة العجيبة من غير كلفة ومن غير ان يبدو هنالك عناء او تصنع

مضت في كتابتها ناحية هذا النحو واستطاعت به ان تتناول اغراض الحياة وان تبحث فيها كما يبحث الذين يشتغلون بالصحف أو بتأليف الكتب الاجتماعية القريبة التناول . وذلك بقصد اشاعة فكرة الخير والعدل بين الناس ، والتنبيه الى كل ما هو واجب او مستحب لنهضة الأمة تارةً ، ولنهضة كل فئة من فئاتها تارةً أخرى . وبهذا نزلت الى ميدان العمل

الكتابي ، ولكنها بقيت في طريقتها من الانشاء الشعري الاحتفالي . ورأت بعد ذلك لاستكمال ثقافتها ان تقرأ ما شاء الله من دواوين العرب وأمهات كتبهم . وكذلك قرأت من دواوين الفرنجة وأمهات كتبهم ما لا يكاد يحصى . ثم اندفعت لتعلم اللغات الاجنبية وأتقنت منها بضعاً اتقاناً كان يحار له ابناء تلك اللغات . وفوق هذا طالعت المذاهب الفلسفية المختلفة وكانت تتحدث حديثاً عجباً عن موازنات بين الادباء أحياناً والشعراء أحياناً والفلاسفة أحياناً بما يُقضى له عجباً

فمع كل هذا العلم الواسع والادخار الكبير من ثمرات المطالعات التي لم تنقطع عنها يوماً أو بعض يوم ، وأفنت فيها معظم مجهوداتها كان الشعر من حيث هو أعاريض وقوافٍ قد أصبح من الاشياء التي تفكر فيها كما يُفكّر في التحف الفنية ، والألطاف البديعة ، والزينات الشائقة ولكنها لم تر ان تذهب في مطالبة نفسها بهذه الصناعة إلى أبعد من هذا الحد

لم يحصل أن بيّنا آثرت ديواناً على ديوان أو فضلت شاعراً على شاعر — وهذا يقدر علي — وكان يطربها في الشعر ويأخذ من نفسها كل مأخذ إما الشعر العالي الخيال ، المحدوم الصياغة الذي ينبه في النفس العواطف تنبيهاً قويًّا ، وأما الشعر الذي كتب لاغراض موحّدة قُصلت فيه تفصيلاً محكماً ، وقدّرت أجزاؤها تقديراً مترابطاً ، وانتهت به الى مغازٍ ومرامٍ تتم موقعها من النفس الانسانية عامة أو من أمة معينة يكون قد كُتب لها ذلك الشعر

لم تعرم مي بالموازنات بين شعر وشعر لانها كانت تخشى بذكر ايثارها لنوع من الشعر على الآخر أن يكون في ذلك تثبيط لاية حركة تريد امم الشرق أن تندفع بها الى تعديل أو تبديل أو اصلاح فيما ألفته ووجدت عليه دهراً طويلاً

بقي أن أقول لك — وذلك ليس من موضوع شاعرية مي — أن كل عنايتها كانت اصلاحاً في الاخلاق والآداب ، اصلاحاً في روح الامم ومطالبها اصلاحاً في المعايشة بين الجنسين ، اصلاحاً في التربية — وخاصة تربية الاطفال ، اصلاحاً في توزيع الاحسان وتدبير شؤونه بدل أن يكون مقصوراً على صدقات تكاد تكون بلا قيمة في النهاية . ذلك كله كان موضع عناية مي ومثار مشاغلها ، وأما مناقشتها في المسائل العلمية فكانت تجد سامعيها ، ولم يكن كلامها في مسائلها كلام عابر سبيل ، أو حديث غير المتثبت ، بل كان كلام الواثق ، وحديث العارف . وما ادعت يوماً أنها فيلسوفة وكذلك كان موقفها من الشعر تقرأ وتفهم ما هو أعلى وأسمى ولكنها لا تشتهي أن تتعرض للمفاضلة . أعني بجملة الكلام كانت في نهاية أمرها قد بقيت فيها روح الشاعرية كامنة ، ولكنها — على كون هذه الروح فيها — لم تشتغل بالشعر ولا بحواليه من حيث هو صناعة

حديث مي

ليس الحديث مع الأموات بأجسادهم الفانية بدعة ؛ فلقد أتاحت لي ميّ في خلال قراءاتي الكثيرة لكتبها ومقالاتها أن أصطنع معها بالروح حديثاً ، وأجلس معها بضع ساعات كما جلست مع حضرات الافاضل الذين سجلت لهم أحاديثهم كما شاءت « المقتطف » أن أصنع

ولم يكن حديث « ميّ » معي حديثاً نطق به لسانها أو انفرجت عنه شفتاها ، أو تكيّف بصوت مخصوص ، أو جَرْس مسموع ، ولم أسمعه بنغمة أو نبرة أو لفظة ، ولم يصل الى مسمعي كلاماً مرتلاً ، أو لحناً مسلسلاً . .

ولكنه حديث أخذتُه من خلال كتبها ، واقتطفتهُ من بين مؤلفاتها ، ولقد حافظتُ فيه على الأصل ، وأبقيتُ فيه على كلماتها نداتها ، وتنقلتُ في الحديث من كتاب الى كتاب ، ومن صفحة الى صفحة

وما كتابات ميّ في كتبها ، ولا عباراتها في مؤلفاتها ومقالاتها ، وخُطبها ومحاضراتها الاّ أحاديث مسطورة لسانها ، مكتومة في حيها . فاذا عرضتُ اليوم بعضاً منها فما زدتُ على أني تصورت « ميّا » الكاتبة « تتحدّث » بما كتبتْ ، وتمثّلتُ ميّا المؤلفة « تتكلم » معي بما ألّفتْ ، أو بعبارة أصح وأوضح ما زدتُ على أني أنطقتُ « ميّا » الصامتة اليوم لتتحدّث بعباراتها هي ، وبألفاظها هي التي وردت في كتبها أو آثارها . . .

ولستُ في هذا بمفترٍ على ميٍّ أو بمجترئ على قداسة روحها وجلال موتها ، ولستُ في هذا أيضاً بكاذب على القراء حين أصطنع الحديث مع الأموات ، فان « ميّا » الجثة الهامدة والهيكل الفاني والجسد الترابي قد مضى الى التراب ليختلط بذراته ثم يكون بعد ذلك أديماً للارض التي يجب ان نخفف الوطء فوقها . . .

أما « ميّ » بروحها وفكرها وبالمعاني المعنوية فيها فهي خالدة باقية نتصورها محدّثة ولا نجد غضاضة في قبول هذا التصور ، ونتخيل أنها تكلم معنا بكلام هو الوحي والصدى لما صدر منها في كتبها من كلام

١ — سألتها : (لقد زرت يا ميّ « عين زحلتا » بلبنان ، ورأيت نهر الصفا يتدفق عند قدم جبل فماذا أوحت اليك هذه الزيارة ؟)

فقالت لقد خاطبت النهر قائلة : —

أنهر الصفا ! جئتك نهبة الروح والجسد معاً

قرأت خلاصة الأحوال الحاضرة فدوي و بعلي هدير الدافع وتمثل لناظري صور الحرب الخبيثة ، ثم قصدت الاجتماعات فلا أذني ضجيجها التافه ، وضجرت نفسي من معانيها السطحية ومراميها الخبيثة . عجبت لبلاهة الانسان وركاكة أمياله وفتور همته . اذ ذاك سمعت إسمك الموسيقي فأحببته لأن فيه جمالاً وعذوبة وسلاماً .

على هذه الصخرة حيث أنا أحلم غنة بما شربته مشاعري من رحيق الجبال العلوي كان يجلس الأمير بشير الشهابي الكبير . كثيرون بعده وقبل جلسوا هنا وفؤاد كل منهم منقبض تهيباً وخشوعاً أمام أنفاس الطبيعة وأصوات الخلود . ما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لأن الأفكار تتشابه في المصدر وفي النتيجة رغم تشعبها وتفرعها ، والرغائب الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس هي هي في كل آن ومكان (من كتابها : ظلمات وأشعة)

٢ — فسألتها : (في الحرب الطاحنة الآن جن جنون البشر ، فالبر في خطر والبحر في خطر، وكل يوم تغرق سفينة او بارجة، فهل تذكرين غرق « لوزيتانيا » في الحرب الماضية وماذا أثار غرقها في نفسك ؟)

فأجابت موجهة الخطاب الى لوزيتانيا : —

لوزيتانيا ! لوزيتانيا !

سوف ينتقم لك البشر من البشر . سوف يقيم التاريخ لك ولأخواتك جميل الآثار . سوف تنظم لك الأناشيد . ويعزف لذكرك طروب الآلات

واذا مثلت في أعماق الهاوية عن الانسان الذي أبدعك واستخدمك فقولي أنه ما زال كبير المطامع موفور الغرور، وأنهُ في غروره قد أحبك وبكاك

واذا سألتك روح الهاوية منهولة : إذن كيف فتك بك ؟ فأجيبي بما يقولونهُ في ربوعنا من أن الذي قضى عليك ليس التحالف الملقب بالانساني . بل البطاش المنعوت بالجرماني .... (من كتابها : ظلمات وأشعة)

٣ — فسألتها : (ما رأيك في الحب ؟)

فأجابت : ما أعظم الحب . وأشرفهُ في القلب النصر الحكيم ! هو أقدر عامل ينهض بالانسانية منهلاً طريقها عتقاً أثقالها ، خالقاً من أبنائها الابطال والجبابرة ، وأجل الارواح وأكبر القلوب وأنبل النفوس أنما هي تلك التي يظل فيها نهر الحب دائم الفيضان وتظل تبعث

شعاع شمسنا الداخلية الى ما وراء الفرد والبيت والوطن فتمتد على كل شيء وتضيء كل شيء الذي يحب كثيراً يفهم كثيراً لأن الحب أستاذ ساحر نتعلم منهُ بسرعة ويفتح لنا رحب الآفاق يهتم فيها صوته الحي الذي لا تسكته أصوات الأفراح والاحزان . ولكن كم نصغر الحب ونحقره عندما نحصره في الموضوع الواحد الذي تدور حوله الروايات والاشعار الغزلية، وننسى انهُ الرابطة الكبرى ، كدت أقول الرابطة الوحيدة بين أجزاء الكون وبين الانسان والموجودات ، وانهُ هو وحده دواء السآمة الناجع وبلسم التعزية الفعّال

(من محاضرتها : غاية الحياة)

٤ — فسألتها : (مارأيها في موجة الدمقراطية التي لمست مصر في العهد الحديث ؟)

فأجابت : (لقد لمست موجة الدمقراطية شواطيء الشرق الأدنى ، وأول من هتف بها في مصر أحمد لطفي السيد بك « باشا » ، يوم كان بعضهم يطلقون عليهِ مزاحاً لقب الفيلسوف الديمقراطي. ولم تقف المسألة عند حدّ المزاح بل هزلاق من اعتناق الافكار الحديثة مصائب واحتمل سخافات ... وهنا الوقائع التاريخية تقضي بالاعتراف بأن اسم الدمقراطية جديد في هذه البلاد ، ولكن معناها غير جديد . لأن الاسلام كان أبداً ديمقراطي المبادىء ديمقراطي الأساليب . وهل من ديمقراطية أتم من ان نرى الملوك يتخذون لهم من الجواري زوجات شرعيات ويرفعونهنّ الى مرتبة الملكات . أو هل من ديمقراطية أوفى من أن يخرج من الطبقة الدنيا قوم يرتفعون بكفاءتهم الشخصية ورجاحة عقولهم فيحملون أعظم الالقاب ، ويتقلدون أجل المناصب ؟ (من كتابها : المساواة)

٥ — فسألتها : (كيف يؤثر فيك منظر الربيع المودع والنضارة المولية ؟)

فقالت : أشرقت الشمس وعلت فوق ذرى الجبل الواحد الذي يحتضر عاصمة أبي الهول ، ومضت الأطيار الى عمل النهار وليس على الغصون من طير يصدح . واستيقظ أهل المدينة ، وبدأت حركة الشوارع ، واستوثقت جلبة العمران . وفاض النور على جوانب الأفق وساد طليقاً في كل مكان . وعما قليل تشتد حرارته فتصلينا بسعير الظهائر والهواجر

(ثم وجهت الكلام الى الربيع المودع قائلةً) : —

أ كذلك وداعك ، أيهذا الربيع ، في آخر صباح من أصباحك ؟

وهل أنت تقبل كما يقبل الواحد منا ، وتدبر كما يدبر ، وتسلم وتودع مثلنا سواء بسواء؟ أم أنت تتولد من قلب الشتاء كما يتولد الفرح من قلب الترح وتذوب عناصرك في مقبل

الصيف فتمده بالقوة والحيوية كما يعني الأمل مصادر النضج في الانسان وعلة كيفية التحقيق ؟

ألا ان هذه الحياة متحابكة الحلقات ، متسلسلة الوقائع ، متضافرة الطوارق ، متلازمة الاضداد ، نحسب اننا نحذفها ونقسرها ونتصرف فيها ، على حين هي تعالجنا وتتصرف فينا من غير ما شرح ولا تفسير ! »

(من « وداع الربيع » : المقتطف يوليو ١٩٣٠)

٦ — فسألتها : (هل شعرت يوماً بأنك غريبة في مصر ؟ وما رأيك في العلاقات بين مصر وسوريا ؟)

فقالت : مصر وسوريا وطن واحد ما زالت العلاقات المتبادلة تزيده كل يوم توحيداً ، السوري في مصر بين اهله واصحابه ، والمصري في سوريا بين ذويه وأحبابه

أتأت مياه النيل صدى آهات النسيم في غابات سوريا ، والطبيعة التي تزمجر هناك بين المرتفعات والمنحدرات ترتاح هنا منبسطة على صفحات المروج الفيحاء

مصر وسوريا ، كلاهما همستان مختلفتان من لغة جميلة

مصر وسوريا ، كلاهما محسن وكلاهما محسوب . لكن تبادل الاحسان والمحسوبية يزيد صداقتهما ، ويزيد في اتفاقهما ، ويجعل قلبيهما خافقين على وفق نغمة واحدة

(من كتابها : كلمات واشارات)

٧ — فسألتها : (لقد بدأ العام الجديد عام ١٩٤٢ . فهل عندك كلمة تحيين بها مطلعه ؟)

فقالت : تمهيداً لذلك اليوم الآتي أحيي الآن كل متشح بالسواد ، أما السعداء فلهم من نعيمهم ما يغنيهم عن السلامات والتحيات

أحيي الذين يبكون بقلوبهم ، أحيي كل حزين ، وكل منفرد ، وكل بائس ، وكل كئيب ، أحيي كلاً منهم متمنية له عاماً مقبلاً أقل حزناً وأوفر هناءً من العام المنصرم

نعم للحزين وحده يجب أن يقال : عام سعيد !

(من كتابها : سوانح فتاة)

***

والى هنا طويت كتب « مي » المبعثرة على المنضدة أمامي ، ولممت آثار « مي » القلمية المنتثرة بين يدي ومن خلفي ...

وبدا أول وميض من نور الصباح الباكر ينفذ الى غرفتي من خلال الزجاج ، كأنه يدعوني الى الاستعداد للعمل ، والتأهب لاستئناف النضال اليومي في سبيل العيش

فنحيت كتب مي ناحية وقلت : — الى هنا طويت الكتب ، لتنشر بعدها الاحاديث

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

محمد عبد الغني حسن